رواية: محارِبة الفناء

كتبت هذه الرواية بقلم:

"ماسه محمّد بطمان."

الإهداء:

إلى مدرّسة اللّغة العربيّة "هلا المشهداني"

الّتي خطّت بأناملها في دفتري ذات يومٍ:

أرجو لكِ كل التّوفيق والنّجاح، وأتمنّى لكِ

مستقبلًا جميلًا كوجهكِ المشرق، ودام إبداع

هذا القلم....

ممتنّةٌ لكِ ... لعطاياكِ

قلمي اليوم يخطّ الشّكر باسمكِ...

فلولاكِ لكنت فقدته منذ زمنٍ....

نُقل أبي إلى المستشفى كان قد اهلكه التعب..

خمسُ سنواتٍ والمرض ينهك عظامه ويأكلُها، الأمراض المزمنة جعلته يتقدم في العمر مئة سنة، ذات ليلة استيقظت على صراخٍ يعلو من غرفة والديّ وإذ صوت أبي بدأ يضعف وأمي تحاول أن تترجم مايقول، لازلت أسمع صراخ أمي وهي تنادي عليّ وتصرخ باسمي "بيسان"

ركضت مسرعة إليها ليكُن أبي وقع على الأرض وأغمي عليه.

أهرول مسرعة ألتقط الهاتف الأرضي وأطلب الإسعافات أعطيتهم العنوان وأنا ألهث من خوفي، جاءت سيّارة الإسعاف وحملوا أبي على السّرير المتنقل و صعدوا به إلى السيّارة.

تنقله سيارة الاسعاف وقلبي مندملٌ ينتظر الطبيب المشرف كي يخفف عن اوجاعي..

يتحدثُ ابي والكلمات تخرج منه بتثاقل : اعتذر لكِ عن كل يومٍ سببت لكِ الازعاج فيه يردف قائلًا ان حل بي أمرٌ ما ارجو ان يصفح قلبكِ عني ..

وأنتِ يا مقلة عيني وياروح فؤادي اتمنى لو بعود بي الزمان وأكنّ لكِ ذاك الاب المثالي كما كنتِ تحلمين سامحيني يا بنتي ان قصرت ولو للحظة ..

تقول امي وهي تخفف ضيق ابي: لا تقل ذلك يارجل، ان شاء الله ستعود لتكن بيننا وليسكن صوتك في بيتنا وتغمر السعادة روحنا..

وأما انا فكيف ارد عليك يا نور عيني، أحدثه بكل صدق: أرجوك يا أبي لا تنطق بهذا، إننا نحبك كثيرًا وكنتَ لنا خير صديق وأبٌ حنون..

كان يطلب منّا السّماح كي لا يشعر بالذّنب إن أصابتنا نازلة فقده، كان لديه شكٌ دائم بأنه لم يعطني حقّي من الأبوّة لكنه في الحقيقة على عكس ذلك كان أخي عندما ألعب، وصديقي عندما أذهب للمدرسة، وأبي عندما يقصّ لي حكاية جدّي وعمّي وقبل أنا أغفو حكاية ليلى والذئب.

ثلاثة عشر يوم في المستشفى، ونحن ننتظر له الشفاء العاجل على أحرّ من الجمر.

كان طلب الأطباء أن يبقى تحت المراقبة لمدّة أسبوع بعد اكتشافنا أن أصابته جلطة في الدّماغ، أتمّ الأسبوع تحت المراقبة والإشراف والمعاينة وعندما حلّ الصباح ونحن نستعدّ لإخراجه يخبرنا الأطباء بأنه دخل في غيبوبة ويجب إدخاله العناية المشددة حالًا

يتعبني الانتظار يارب عافهِ فإنه عبدك الذي كان لي سند في حياتي ، ادعو لأبي لعل دعواتي تقبل اخرجُ من مصلايّ لتكن الفاجعة..

انتظرنا ستة أيام عودته بيننا، حتى استيقظت ورأيت

وجه أمي مصفرٌ ولا يبشرُ بالخير البتة، أقول أمي ما بكِ ؟ ..

تصمتُ وكأن لسانها عقد يأبى التحدث ..

علمتُ في قريرة نفسي أنه اليوم الذي خرجت به روح أبي للسماء

لا أود التصديق، ارى الممرضة تخرج سريره وجثته الى ثلاجة الموتى، يخنقني الكلام، تقف الحياة معلنة أنني بلا سندٌ الآن، يقع جثماني الحزين على رأس إبي اقبله اطلب منه السماح، اطلب منه ان يستفيق لعله يسمعني، ولكن ما من جدوى.

نقل ابي الى ثلاجة الموتى لتبدأ رحلتي مع الحياة بلا سندٍ يعاونني

وما اصعب دنيايّ دونك يا أبي، رحلت بسرعة وتركتني اعانق قمصك..

وكما قال الكثير اكرام الميت دفنه وأحيائه في قلوبنا واجب، كان يومًا لا يستهان به، اترك قطعة من قلبي تحت ترابك يا وطني،فلله ما أخذ ولله ما أعطى وانّ لله وانا اليه لراجعون ..

لقد كانت أيّامًا ثقيلة قاسية وحالتنا المأساوية يُرسى لها، لقد حلّ الظّلام على حياتنا منذ أن أغمضت عينيك، كم تمنّيت لو كنت أنا الراحلة بدلًا عنك لكن لا يحبّب لي أن أكسر قلبك وقلب أمّي.

لم يبقَ لي من بعدك لا سند ولا معين في هذه الحياة الشاقّة سِوى رب العالمين.

حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلنْت فيه خُذلاني، ووسعت خيبَتي السّماوات والأرض بعدما تمّ خداعي من قبل ذلك الشّاب الذي يقاربني في العمر

وها هي قصّتي ابتدأت دون اختتام:

قصّتي بدأت مع رَفيق الذي يكبرني بثلاث سنوات، يدرس السنة الثالثة في كلية الصيدلة أما أنا فكنت طالبة في السنة التحضيرية للكليات الطبية.

بنَظري كان رجلًا نادرًا تبحث عنه الكثير من الفتيات، طويل ممشوق القامة رشيق الجسيم عضلاته مفتولة أما الوجه كان آية في الجمال، ذو عيون زرقاء كزُرقة البحر يحيطه البياض النّاصع.

لقاءنا الأول في مقهى الجامعة كان يجلس مع زملائي لأعلم بأن أحدهم صديقه، دار بيننا حوارٌ كأيّ شخصين يلتقيان لأوّل مرة:

ما اسمكِ؟

بيسان، وأنتَ

أنا رفيق، تشرّفت بمعرفتكِ

وأنا أيضًا.

أين تسكن؟

في الحيّ الذي يفصله الشارع العام عن جامعتنا.

احكي لي عن عائلتكِ؟

عائلتنا تتكوّن من أم أرملة وابنتها اليتيمة، توفّي أبي منذ مدة قصيرة.

أنا آسف، لم أقصد أن ألمس حزنكِ بسؤالي؟

لاعليكَ، هذا حال الدنيا ولله ما أعطى ولله ماأخذ.

وأنتَ حدثني عن عائلتكَ؟

ربما حياتي شبيهة لحياتكِ، أعيش عند جدّتي والدة أبي، أبي متزوّج من امرأة بعد وفاة أمي.

إذًا جرحي نصف جرحك، أنا يتيمة الأب وأنت يتيم الأم.

حالُ الدّنيا، لا اعتراض على حكمته تعالى.

ونعم بالله.

بدايةً كان لايطيل في النظر إليّ أكثر من ثلاث ثوانٍ متّصلة، يوم بعد يوم كثُرت لقاءاتنا وأصبح ما بيننا حالة من الإعجاب أو نتيجة تقارب الأفكار أو ربّما لأننا أخوة في اليُتم.

كانت مشاعرنا مغلّفة بشيء من الخجل، بدأنا نتحدّث بلغة العيونِ في الحبّ أصبح ينظر لعينيّ مطوّلًا دون الالتفات إلى شيء آخر ثمّ بدأ يتودّد لي رويدًا رويدًا ويقدّم لي أزهار التّوليب لكي يكسب كلّ الحب الموجود في فؤادي

بعد فترة من علامات الهوى تناغمت أرواحنا وتآلفت قلوبنا هو يتيم الأمّ وأنا يتيمة الأبُ كنت أرى في محياه ملامحك يا أبي التي اشتقتُ وفي حنيّته دفء العالم كلّه، كان رجلٌ مستنسخ عنك لا فرق بينكما.

أصبحنا نتبادل السوالف والحكايا ونتراسل على تطبيق "الماسنجر" ، ذات مساء سألته:

ماهو أكثر شيء يخيفكَ؟

لايخيفني شيء قدر مايخيفني فقدان شخصي المفضّل.

ومن هم أشخاصك المفضلين؟

جدّتي، أبي وأنتِ

أنا؟

نعم أنتِ، لمَ مندهشة.

لست مندهشة...

وأنت أخبريني ماهي أهم الأشياء في فتى أحلامكِ؟

أن يكون ملاذي الآمن عند خوفي وملجأي في الشدائد.

وأنتَ أخبرني عن فتاة أحلامكَ؟

اممم، أريدها كأنتِ تشبهكِ، بحُسنكِ...بطيبتكِ...أن تكون مثلكِ تمامًا.

ولماذا أيها الشابّ؟

لأنني مفتون بكِ

يا لكَ من ولد...

نعم إنني ولدكِ...طفلكِ أنتِ

هيّا اذهب للنوم إذًا، يكفي السهر إلى هذا الوقت.

حاضر يا أمي، تصبحين على خير ياكُل الخير.

وأنت بألف خيرٍ عزيزي.

انقطع تواصلنا لأيام متتالية معدودة، يرنّ هاتفي وإذ بإشعار رسالته يقول فيها:

أتسمعين للموسيقار ملحم بركات؟

استغربت سؤاله:

لا... لا أستمع له، لماذا؟

يقول في أغنيةٍ له.

كان الهَوى يحكي معي...

بطّل يحاكيني الهَوى...

وأنتِ يا هوى قلبي، لم تتكلّمي معي منذ أيّام.

مشاغل الحياة ومشاقّها تستغل أوقات فراغي

ليردّ قائلًا:

ليتني حياتكِ بمشاغلها ومشاقّها كي أسرق كل أوقاتكِ

ازدادت روابطنا شدةً وصلابةً ووعدني بأنه سيتزوّج منّي ويكون لي خير زوجٍ..وأب...وصديق..وأخ.

حتى أتى اليوم الذي طرقَ فيه فارس أحلامي بابي، وجاءت معه جدّته التي يعيش معها في نفس المنزل بعد أن توفيت والدته، نظرت إليه من شق الباب... يا له من رجلٍ وسيمٍ، كان يرتدي بذلة رسمية ذو ربطة عنقٍ و يضع في يده اليسار السّاعة التي أهديته إياها يوم ميلادِه قبل أسبوع أمّا يده اليمنى كان يحمل بها باقة التّوليب وسطها حزمة من الورد الجوريّ و حذاء أسود كالليل يلمع من شدة نظافته.

دخلت ووجنتاي تختنق من شدة احمّرارهما، أحمل القهوة وأنظر بطرف عيني إلى وسامته وأسحب أكبر كمٍّ من عطره كي أُخبّئه داخل رئتاي، كنت ارتدي فُستانًا يغطي عورَتي سماويًّا اللونُ تزيّنه زهور بيضاء صغيرة جدًّا وحجاب أبيض يغطي رأسي.

قدمت القهوة وبعدها جلستُ وأنا أنظر إلى الأرض وأستمع للحديث، فجأة يلتفت إليّ ويسألني عن حالي:

كيف حالك بيسان؟

بقلبٍ مرتجف ولسان متلعثم أجبته:

الحمدُ لله رب العالمين، بأحسن حال.

ليردف هامسًا بأذني بصوته المنخفض خشية أن تسمعه أمّي:

افرحي، ستكونين زوجتي بعد أشهر قليلة.

رددت عليه بارتباكٍ واضحٍ:

ليقدّم الله كل خير ويبعد كلّ شر.

همّا للوقوف وتهيئًا للذهاب

ربتت جدته على كتفي قائلة سوف تُدخلي الفرحة إلى هذا المنزل بعد طول عناء يابُنيّتي.

قلتُ لها بخجلٍ والعَرق يجري على جبهتي:

دياركم عامرة بالأفراح دائمًا ياخالة، مع السّلامة.

نمْت بعد ذهابهم والفرح ملأ قلبي.

من شدّة الفرح استيقظت متأخرة على مكالمتين فائتتين من رفيق، اتّصلت به و نومي يغلب يقظتي:

صباحُ الخير رفيق...

صباحُ الخير!

قولي مساءُ الخير، شمسكِ عاليةٌ اليوم أعتقد أن السعادة سهرة البارحة خدّرتك حتى لا زلت نائمة إلى هذا الوقت.

ماذا تريد حتى اتصلت منذ الصباح الباكر؟

اتصلت لأعرف ما هو سرّ خجلك يوم أمس؟

أووووه، لو تدري أن شعوري كان لا يوصف، توتّر...خجل...ارتباك...تردّد.

لاحظت ذلك عليكِ دون أن تحكي.

لا تهتم، كلّ الفتيات يشعرن هكذا عندما يُقبلن على الخطوبة ومشروع الزّواج.

استيقظي الآن وقومي اغسلي وجهكِ ليرحل النّوم القاتوليّ هذا.

حسنًا، تريد شيئًا منّي قبل أن أغلق الهاتف؟

انتبهي على نفسكِ يا مُدللتي.

وأنتَ أيضًا أيّها الشّقي، مع السلامة.

تقدم لخطبتي ولأنني بلا أب قام بخطبتي من أمي، رأيتُ به عيون ابي ابتسامته كيف يتحدث، لقد وافقت على استحياء عندما طلبت امي موافقتي، تمت الخِطبة، قضينا الليل كله ونحن نكتشف بعضًا البعض، نتسامر ونتبادل اطراف الحديث، تمّت طقوس الخطبة سريعًا وعقد قران قلوبنا وها هو خاتمه داخل إصبعي وها هي ابتسامتي أسيرة بين يديه، وسرعان ما انقضى الوقت ومضى على خطبتنا شهر وعدة ايام.

تعرّفنا على بعضنا أكثر وأصبحت روحُ كلّ منّا في جسد الآخر، روحه آنست أعماقي ورُوحي سكنت جوفه، أدركت أنّه رجلي الحقيقيّ وشريك عُمري الحلو وفتى أحلامي المُنتظر.

كانت أياماً جميلةً...أقل ما يمكن ان تصف بها بأنها لطيفةٌ وذات لذةٍ جميلة. كنا هائمين ببعضنا. لقاءاتنا، احاديثنا وحتى نظراتنا مانت مشبعة بالحب..مشبعةً بلذة العشق. لطالما كان يزورنا في المنزل مرة كل أسبوعٍ مجلباً معه الكثير والكثير من الحب. نسترق اللمسات خلسةً محرجين من والدتي. وما إن تتركنا للحظات حتى يسرع كطائر الطنان ليخطف قبلةً من وجنتي الورديتين بشهوةٍ وشغف. لم أبادره يوما بقبلةٍ رداً على قبلاته، فقد كنت أخرج مسرعةً من الغرفة خوفاً من انفجاري المؤقت بسبب خجلي. هكذا كانت أيامنا، لطالما كان الحب ثالثنا في جلساتنا.

مرّت الأيّام تباعًا إلى أن حان موعد الامتحانات الفصليّة.

لم أدري كلّ هذا الكم الهائل من التركيز والدراسة والحفظ وإلخ... سيواجهني أثناء تقديمي للامتحانات، لكن رغبتي في تحصيل النّجاح تفوق التشاؤم بالفشل، لملمتُ كتُبي وجمعتُ محاضراتي المتناثرة وبعضها المتراكم عليّ منذ أن أقبلت على علاقة خطوبتي من رَفيق

بينما قضيت ساعات متأخرة من الليل وأنا غارقة بالأوراق والاقلام وكتاب التّشريح حلّ عليّ النّعاس وبدأت عيناي تغلق ستارها

لتوقظني في السّادسّة صباحًا نغمة اتّصالٍ من شخصٍ ما اعتدلت في جلوسي ونهضت مُسرعة من فِراشي ليظهر لي اسم رَفيق على شاشة الهاتف

فتحت الاتّصال ليسبقني في قولِ :

صباحُ الخير، هل جميلتي مستعدة للذهاب إلى قاعة الامتحان؟

أهلًا، صباح النّور... بالتأكيد أنا المستعدة.

لتتناولي فطوركِ وترتدي ملابسكِ وتنتظريني على بوّابة البناء سأكون بانتظارك السابعة والنصف لنذهب سويًّا إلى الجامعة...

لا تكلّف نفسكَ بالمجيء، أستطيع الذهاب وحدي...

لا تُكملي... سأكلّف نفسي إن قلتِ نعم أو لا.

كما تريد، سأقوم بتجهيز نفسي، حالما تصل سأكون بانتظاركَ.

وصل على موعِدنا تمامًا يا له من ملتزم في المواعيد، كانت تعلو من سيّارته أغنية السيّدة فيروز التي تدخل القلب دون استئذان "أنا لحبيبي وحبيبي إلي" ليخفض صوت الرّاديو ويقطع شُرودي في الأغنية بِقوله:

أهديكِ في هذا الصباح هذا المقطع من سيمفونية سلطانة الطّرب...

وأنا قبلتُ هديّتكَ، وبإمكانكَ زيادة السرعة لنصل حالًا بقي عشر دقائق لبداية الامتحان.

وصلنا وكلّ واحد منّا دخل إلى قاعته.

انتهت المدة المقرّرة للامتحان وهممت للخروج من القاعة وإذ ألمحه يقف في الخارج.

أنتَ هُنا؟

نعم، خرجت من الامتحان و قلت في قريرة نفسي لأنتظرك لنعود معًا للمنزل.

نطق اسمي بتعجّبٍ:

بيسان!!!

ما بكَ؟

أنتِ ما بكِ؟

تظاهرت بالحزن و عبستُ بملامحي قليلًا.

لا شيء.

أأنتِ متأكدة؟

نعم...قلت لك لا شيء حصل.

قبض على ذراعي بقوّة وكأني أسيرته وهو سجّاني، سألني وعيناه تنظر بخوفٍ:

قلتُ لكِ ما الذي حصل؟

لقد جاء الامتحان بما لا تحتويه الكتب، و يرنّ في أذني صدى ضحكتي في المدرّج الخالي من أي مخلوقٍ بشريّ.

يقطع سلسلة ضحكي الهستيريّ:

بيسان، أتسمحين لي بفعل شيء؟

تفضل ما هذا السؤال؟!

أغمضي عينيكِ إذًا؟

ويلحق بصدى الضّحك صدى صوت يدٍّ ضربت وجنتي اليمنى المقابلة له.

استشطت غضبًا بما قام به:

ما هذا لذي فعلته أيها الأحمق!!!

تقولين لي بأن الامتحان من خارج الكتاب إذًا، هل هذا سبب يُحزن لأجله؟

هذه مزحة، ألا تتحمل المُزاح !

لا.... لا أتحمّل

والآن حان دوري، لن أسامحك على هذه الصفعة وستدفع ثمنها يا رفيقي...

أنا آسف يانورَ عيني، ماذا لو عدتُ لكِ معتذرًا؟

لفتحت لك أبواب قلبي ويا أهلًا وسهلًا بكَ في عالم الحبّ وليبدأ قبطان سفينتي بالإبحار في شطِّ الهوى

ولتقرع أجراس فؤادي لتُعلن عن ابتداء رحلتنا سويًّا

وماذا أيضًا؟

يا لكَ من طمّاع...

لأجلستك بين ثنايا القلب وجعلت عرشك صميم فؤادي فيا مرحبًا بكَ عمرًا و دهرًا وأخيرًا فلا التخاصم طبعنا ولا نحن له أهلٌ، ولعلّ المقام بالمقيم يليقُ.

منذ قليلٍ قلتِ سأدفع الثمن...ما الذي غيّرك في لحظات؟

قلبي الذي انفطر على حبّكَ وعقلي الذي لا يفكّر بغيركَ

يقولون أن الفتيات يملكنَ من مشاعر وأحاسيس ما لا تملكه الرّجال.

أتّفق بما يقولون، ولكن أيضًا نملك من الصبر ما لا تملكونه أنتم أيها الرجال.

ركبنا في السّيارة و أكملنا الحديث الذي دار بيننا، يقاطعنا اتّصال أمّي لتطمئن عليّ:

أهلًا أمّي، كيف حالكِ؟

أنا بخير، وأنتِ؟

الحمدُ لله.

كيف كان امتحانُ اليوم؟

أجبت على كل الأسئلة والأمر على ما يرام.

يعلو من جانبي صوت رفيق وهو يغنّي مع الرّاديو.

بيسان رفيق معكِ؟

نعم سيوصلني إلى المنزل ومن ثمّ يذهب إلى بيته.

لحسن الحظّ، أخبريه أن يحضر جدّته ويأتيان للعشاء عندنا اليوم.

حسنًا.

تقول أمّي أن ندعوكَ برفقة جدّتك إلى العشاء في بيتنا اليوم، هل ستأتي؟

نعم، سأخبر جدّتي

حان موعد العشاء.

قد جاء رفيق مع جدّته يطرقا الباب.

مساء الخير.

مساء النّور، تفضّلا.

كانت المائدة مليئة بالأطباق الشّهية والأهم أن رفيق يحبّها، جلسنا إلى المائدة وبدأنا بتناول العشاء وعندما انتهينا صُدمنا بقولِ جدّة رفيق:

ما رأيكم أن نبدأ بالتحضير لمراسم الزّفاف.

التفتّ إلى أمي وسألتها:

ما رأيك أمّي؟

بقلبِ أمٍّ تغمرها السّعادة بفرحة اقتراب زفاف ابنتها:

أنا موافقة، على بركة الله.

وأنتما بيسان ورفيق؟

أنا ورفيق أصابتنا الدهشة والخجل معًا نحن الاثنين:

نحن أيضًا موافقَين.

إذًا لنقرأ الفاتحة على نيّة التوفيق والتيسير بإذن رب العالمين، رفعنا أيدينا لمدة لا تتجاوز الدقيقة ثم أنهينا الفاتحة ب "صدق الله العظيم" ومسحنا على صدورنا.

وبالاتّفاق بيننا نحن الأربعة، بعد يومين ذهبنا إلى سوق المدينة لننتقي ونختار أثاث المنزل من زجاجٍ و أواني الطّهي والأطباق وإلخ.....

لم يبقَ علينا شيء سوى اختيار فستان زفافي وخياطة بذلة رفيق.

بعد أيّامٍ شاقّة كان فيها الجهد أضعاف، تراكم عليّ الإرهاق مما أدّى لتغيّبي عن رفيق لمدة أسبوع.

قبل أن أنام نظرت إلى الروزنامة واقتلعت منه ورقة تاريخ اليوم ونظرت لتاريخ غدًا.

الخامس والعشرون من شهر حزيران، سيكون يومًا ككلّ يوم اللهم اجعله يمضي كالأيام التي مضت قبله على خيرٍ.

لم يراودني النوم حتى التاسعة صباحًا، قضيت النّهار في السّرير أتقلّب من اليمين إلى الشّمال.

وعندما حلّ الليل أستيقظ على أصواتٍ تتعالى وتتزايد:

يا إلهي ماهذه الضجّة، لأدقق سمعي أكثر في الصوت...إنّ مصدره من منزلنا.

نزلت إلى الأسفل بعيون نصف مُغلقة و شعري كان أشبه بالخُنفشاريّ كما يسمّيه رفيق.

أمعن في النظر وإذ أتى هو وجدّته وأمّي تحضّر سفرة الطّعام.

يركض إليّ ويضع قبلاته الدافئة على خدّي ويهمس لي:

كلّ عامٍ وأنت الخير لكلّ أعوامي.

ما زلت متفاجئة:

وأنتَ بخير.

هيّا تعالي لنقطع الكعكة.

هيّا

بعد دقائق عدت إلى الواقع وشعرت بما يحدث من حولي، إنه عيد ميلادي! طوال الحفل كنت شاردة الذهن لا أعي ما الذي يحصل.

لم أكن على طبيعتي المعتادة والكل لاحظ ذلك.

انتهى الحفل وذهبا إلى منزلهم

في اليوم التالي يوقظني كعادته منذ الصباح الباكر باتّصالاته اللامتناهية:

أتمنّى أنكِ قد تحسّنتِ، البارحة كلّنا شعرنا بأنكِ في بداية المرض ويبدو عليكِ ذلك بوضوحٍ.

أهلًا رفيق، لا تقلق على حالي ربّما من التعب المتراكم الفترة الماضية أثناء انشغالنا بالتحضير لحفل الزفاف.

أأنتِ متأكّدة؟

نعم نعم، لا تقلق.

هل أعجبتكِ هديّتي؟

آسفة، لم أفتحها بعد.

لا يهمّكِ، دعينا نلتقي اليوم في مطعمكِ المفضّل.

اعذرني لا أستطيع الخروج من المنزل.

بيسان متأكّدة أنكِ بخير؟

ما بكَ رفيق ألا تترك كثرة الغلبة هذه..كفاكَ إكثارًا من الأسئلة، قلت لك مجرّد تعب متراكم عليّ وظهر الآن

حسنًا، سأتركُكِ ترتاحين إذن، انتبهي على نفسكِ.

وأنت أيضًا، مع السلامة.

كما قال لي يبدو أنّني ببداية مرضٍ ما لقد بدأت بعض الأعراض تظهر جسديًّا.

بدأ الوهن يسيطر على أعضائي شيئًا فشيئًا يصاحبه ارتفاع في درجة الحرارة، لم أكترث للأمر و تابعت مسيرة حياتي الطبيعية، لا عليّ بهذا الأمر كان بالنسبة إرهاق و سيزول بعد الرّاحة.

لكن الأعراض بدأت بالتفاقم يومًا بعد يوم وأصبحت أشعر بتضخّم ملحوظٍ تحت الجلد وظهور كدماتٍ صفراء اللّون تمتزج ببقعٍ حمراء بالإضافة إلى ظهور حسنةٍ على شكل نقطة متناهية في الصّغر بدأ يكبر حجمها ويتحوّل لونها إلى أشبه بالسّواد تولّد بداخلي الشكّ تجاه هذه الأعراض، أخفيت عن أمّي كل هذه الأشياء و استجمعت قوايَ كي لا أبدو هزيلة أمامها.

تغيّبت عن جامعتي أسبوع واعتذرت من رفيق عن ثلاث لقاءات واليوم اعتذرت عن اللقاء الرابع.

كنت بحاجةٍ إلى هذه الإجازة المطوّلة من معاركِ الحياة رغم أنّها أثارت خوف زملائي و رفيق عليّ.

استيقظت كان يوم الاثنين بعد مضي على ميلادي خمسة عشر يومًا على خمس مكالمات لم يردّ عليها من رفيق، عاودت الاتّصال به:

آسفة، لم أنتبه إلى هاتفي عندما كنت تتصل.

لاداعي للتأسّف الآن، أخبريني ما بكِ؟

حالتي يُرسى لها، لا أستطيع وصف ماأشعر به الآن.

اسمعيني، ارتدي ملابسكِ وانتظريني لنذهب إلى مكانٍ ما وتحكي لي:

حسنًا.

أغلقت السماعة، وحاولت مجاهدةً النّهوض من السّرير وارتداء ملابسي.

حملت خطواتي المتباطئة المُثقلة بالألم ونزلت إلى غرفة المعيشة حيث أمّي ترتدي معطفها الأسود وتجلس بجانب الموقِد وتخيّط فستانها الذي سترتديه في حفل زفافي.

قطعت تركيزها وانتباهها للإبرة:

أمّي.. أنا ذاهبة للتفسّح مع رفيق، تريدين منّي شيئًا قبل أن أخرج؟

نظرات أمّي بدأت تُربكني وكأنّها تعلم ما الأمر وفعلًا القلب هو الدليل عندها سألتني إن كنت في مرضٍ لكنني أنفيتُ ما نطقَت به:

لاتقلقي عليّ أنا بخير .

نزلت على الدّرج وإذ برفيق داخل سيارته يسند رأسه إلى النافذة بمرفقته، ألقيت عليه التحية وصعدت إلى جانبه.

انتظرتك كثيرًا، لماذا كل التأخير؟

كادت أمي تعرف ماذا يحصل يارَفيق.

هل عرفت بشيء؟

لا لا، كل شيء كان على مايرام، لنذهب الآن.

ذهبنا إلى حديقة الحيّ وجلسنا على المقعد الذي تتواجد بجانبه بحيرة ماء تروي منها العصافير ظمأها.

سألني ما بكِ؟

أدمعت عيناي وانفجرت بكاءً.

بيسان اهدئي البكاء لا يفيد الآن ، أخبريني ماذا؟

شرحت له تفاصيل التفاصيل.

أمسكَ بيَدي و هدّأ البركان المشتعل في جوفي، وزرع بداخلي الاطمئنان وقتُها أيقنت أنّه الرّجل الذي سأكمل معه بقيّة حياتي وهو يذكّرني دائمًا بأنني الامرأة التي يحلم بها و يريد أن يكمل نصف دينه معها، عندها صرتُ تلك الإنسانة التي لا تخشى شيء في هذا العالم ولا يخيفها سوى الموت.

قال لي بأنّه سيأخذ لي موعد عند الطّبيب لأُجري الفحوصات اللازمة وبعض التحاليل.

رفضت الذهاب بدايةً، لكنه أخذني رغمًا عنّي.

كان الموعد يوم الخميس في العاشر صباحًا وموعدِي مع رفيق في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة.

وصلنا إلى العيادة، وجلسنا في غرفة الانتظار.

كانت عيادته متواضعة تطلّ من نافذتها شجرة الياسمين تعمل فيها موظفة استقبال لمّا دخلنا للانتظار لم تنتبه لنا في البداية حيث كانت منهمكة بترتيب ملفات المرضى وتوزيع بطاقات الدخول للمنتظرين، عندما وزّعت البطاقات بقيت بطاقتي في يدها.

نظرت لنا، أنتِ بيسان؟

نعم.

تفضلي بطاقتكِ، اعذريني لم أراكم عندما جئتم إلى هنا.

لا تهتمي عزيزتي، شكرًا لكِ.

كانت فتاة جميلة في بياضها نورُ القمر وفي استدارة وجهها دائريّ كَبَدر في التمام، شعرها ذهبيّ منسدل على كتفيها كخيوط الشّمس، عينيها لوزيّتين وكأن البُنّ انسكب في قزحيّتيها أمّا الفَمُ دقيق والأنف مستقيم كأنّها من الأميرات، صوتها عذب كتغريدة عصفورٍ في الصباح.

أمّا الجّسد رشيقٌ نحيلة الخصر...معتدلة القوام وكأن قدّها "كغصنِ البانِ في اليُسر".

معتدلة في قوامها لانقص فيها ولا زيادة، ذات هندام حسن يدلّ على اهتمامها بأناقتها ومظهرها.

خفيفة التّنقل في العيادة كفراشة تطير بخفّتها من زهرةٍ إلى أخرى. لم أعرف اسمها، أخبرتنا أن الطبيب قد وصل وبإمكاننا الدّخول.

جاء طبيبي الذي اصبح صديقي مع الأيام.

دخلت أنا أوّلًا و لحق بي رفيق ليطمئنّ قلبه عليّ.

بدأ بوضع الأدوات الطبية وفحصي من جديد بدأت أيأس مما أنا عليه.

عندما انتهى من فحصي تلوّن وجهه بالاصفرار مع علامات الحسرة والشفقة التي عبست بها ملامحه.

لوجّه إلى رفيق سؤاله:

ماذا تكنّ لها؟

هي خطيبتي، وبعد شهرٍ ستصبح زوجتي.

أريد أن أتحدّث معكَ بمفردنا من فضلكَ.

بالتأكيد، تفضّل.

خرجا هما الاثنين إلى غرفة الانتظار وأغلقا الباب خشية أن يصل حديثهما إلى مسامعي.

لم أكن أسمع شيئًا صوتهم كان غير واضح يصعب عليّ فهمه.

على ما يبدو انتهى حوارهم، ينادي لي رفيق كي نذهب.

خرجنا ولاحظت دمعته الواقفة على حافة الهاوية مهدّدة بالسقوط، لكنّه يخفيها بأقصى مايمكن فعله.

أسأله بنبرةٍ مرتجفة ومشاعر متأججة:

مالذي دار بينكَ وبين الطبيب في الخارج، ولمَ لمُ يُحدثك أمامي؟

بيسان أريدك أن تعلمي شيئًا.

ما هو؟

يومًا من الأيام قلت لكِ بأنّك فتاة أحلامي التي بحثت عنها طويلًا والقدر جمعنا والتقيت بكِ، أقسم لكِ بأنّي سأكون الرّفيق والملجأ والملاذ والزوج والأخ والأب لكِ

لماذا تقول هكذا وكأنّنا سنودّع بعضنا و يحزم كل واحد منّا رحاله ويذهب؟

لا يا حبيبتي، نحن متلازمان مهما افترقنا وقريبان من بعضنا مهما ابتعدنا

إذًا قل لي ما الذي دار بينكما؟

بيسان، استجمعي قواكِ من جديد، لا أريد أن أراكِ ضعيفة مهما حدث.

رفيييق، أنا بكامل قوايَ الآن وبعد ثوانٍ سأفقدها إن لم تقول لي ما الذي جرى.

حسنًا.

نعلم أن الله جعل لكلّ داء دواء، أريد منكِ ألّا تخافي شيئًا بعد اليوم واطمئني، لعلّه خير...فَربّ الخير لا يأتي إلا بالخير.

أنتَ مصمّم ألا تخبرني إذًا..أركن السيارة و دعني أنزل..

تمهّلي تمهّلي، سأحكي لكِ.

تفضّل، كلّي آذان صاغية لكَ.

عندما خرجت معه طلب منّي أن أؤخّر مشروع زواجنا حاليًّا.

لماذا؟!!

لا تقاطعيني أرجوكِ.

أكمِل، أنا أسمعكَ.

قال لي:

أرجو أن تنزعا هذه الفكرة الآن لبعد العلاج

استعجبت قوله:

علاااج!!!!

علاج من ماذا؟

زوجتك المستقبلية مُصابة بمرض "كانسر" المعروف لدينا "بالسّرطان" و كما تعلم حضرتكَ بأن مرض كمثل هذا يصعب بناء علاقة جنسيّة في الأيّام، أقلّ شيء يمنعكما من إنجاب الأطفال.

عمّ الصمت أرجاء حلقومي

جلست طول طريقي أصمت وكأني أجلس داخل مقبرة روحي، وحنجرتي تصلّبت عن الصراخ.

رفيق أرجوكَ هل من الممكن أن أنزل لاشتّم الهواء، وأنتَ بإمكانكَ العودة إلى منزلك.

حاولت أن أبقى تلك القويّة الصامدة كما وعدته لكنني لم أبقَ عند وعدي.

انفجرت أبكي بهستيريّة، أصرخ لأفرّغ ألمي المكبوت في صدري.

يصفّ سيارته ويمسكني:

بيسان مابكِ ألا وعدتني أن تبقي قويّة كما اعتدتكِ؟

رفيق أرجوك افهمني

لا أريد أن أموتَ

لا أريد أن أخسركَ وأخسر أولادنا الذين لم و لن ننجبهم

لا أريد فقدان حياتي، وأصبح عالةً على أمّي.

كذلك هي لا تتحمل خسارتي بعد ما خسرنا أبي فجأة

لن تموتي، نعم لن تموتي

وها أنا هنا بجانبكِ سأبقى معكِ حتى النّهاية ولن أتخلّى عنكِ بسهولة، ولا هناك شيء يفرّقنا سوى الموت أنتِ روحي التي أحيا بها والهواء الذي أشتمّه، وعيني التي أرى جمال الدّنيا بها، لن أتركككِ أبدًا.

عِدني أنك لن تتركني.

أعدكِ يا نور عيني لن أفلت بكِ، وستبدأي بتلقّي العلاج بأقرب وقتٍ.

و زفافنا؟

سنؤجله حتى تشفي من هذا المرض اللعين.

والنّاس ماذا ستتكلّم عنّا؟

دعي النّاس وألسنتهم وراء ظهركِ، المهمّ أنتِ الآن ولا شيء آخر.

وما هو العلاج؟

بدايةً سيكون من خلال تدمير الخلايا السرطانية بالدواء الموضعي.

لم أستطع إخبار أمي فأوكلت رفيق بإعلامها.

كان الخبر كالصاعقة أصابت مسامعها.

انهارت ووقعت مكانها، هرعت أنا وإياه لإنقاذها.

وضعناها على السرير وأحضرنا كأس من الماء لتصحو به.

عندما فتحت عيناها التفتت وبدأت الدموع الشفافة تنهمر على خدّيها وتضمنّي إلى صدرها وتنوح بقلب أمّ مكسور.

تلّقيت الجلسة الأولى من العلاج، لم أحسّ إلا بالعذاب والألم وكأنّ قُدّر عليّ العيش هكذا.

عندها أيقنت أنّني سأعيش سنوات رمادية حتى أموت

شيّعت أحلامي، جامعتي ودراستي، مستقبلي إلى مأواهم الأخير وأرسيت بهم على شطّ النسيان.

وكأن الحياة تتكاتف هي وتجاربها مع بعضهم البعض ويتآمرون عليّ، أنام كلّ ليلة ولا أعلم متى وكيف تزورني هلاوس الموت؟.

علمت أثناءها أن في الحياة معركة بيني وبينها إما عليّ مصارعتها وأنتصر أو أرفع راية استسلامي البيضاء وألوّح لها بها، يعني هناكَ فائز واحد في حروب هذه الدّنيا

واصلت على تناول الجرعات لمدة ثلاثة شهور دون نتيجة ميقّنة أستعيد بها رغبتي في الحياة، ليلجأ الطبيب إلى العلاج بالطريقة الإشعاعيّة.

بقيت أتأوه وأتذوق مرارة المرض من جديدٍ وكلّ فترة العلاج الماضية رميتها في سلّة المهملات وبدأت معركتي من جديد.

مرّت ثلاثون جلسة علاج إشعاعي دون جدوى، هكذا تضيع أيامي هباءً منثورًا، وأمّي تتوجّع مع كل وجعٍ آلم به.

أجلس على فراشِ الموت ورفيق ما زال بجانبي ولم يتراجع عن وعده:

رفيق!

يا قلب رفيق!

هل سنبقى هكذا؟

ماذا تقصدين سنبقى هكذا؟

دون زواجٍ.

طبعًا لا، سننتظر فرج الله الذي سيأتي معه شفاؤكِ.

لكنني فاقدة للأمل بالشفاء.

لكن أنا لم أفقده يا بيسان.

الله أكرم من أن يرى عبده يتألّم مرضًا ولا يشفيه.

لا تيأسي، أنا أدعو الله أن يشفيكِ شفاء لا يغادر سقمًا.

يا الله استجب لدعواته.

نامي الآن وارتاحي.

لا أستطيع النّوم كُتب عليّ سهر اللّيل والنّهار، وإن غفت عيني يوقظني الألم

رفيق!

نعم يا روح روحي.

انظر قليلًا!

بماذا؟

احلم أنّني أرتدي فستاني الأبيض وأمسك بيدي باقة الورد وأنت تعقد ربطة عنقكَ وترتدي الساعة التي اشتريتها لكَ ونتحضّر للدخول إلى قاعة الزفاف.

تخيّلت ذلك، يا إلهي كم سنكون مسرورين حينها.

نعم نعم، تخيّل الآن حينما أُدخل يدي اليسرى بيَدكَ اليمنى وأشدّ عليها وأنا أنظر إليكَ ثمّ تقول لي تفضّلي يا عروس اليوم.

بيسان!

نعم.

ستكونين عروس هذا اليوم وعروس قلبي والأميرة التي ستزيّن حياتي بخطوتها اليمنى التي ستدخل بها إلى بيتي.

تعال لنتخيّل معًا أولادنا الآن.

أنا أريد ابنٌ واحد، وأنتَ؟

اممم أنا أريد ابنةٌ واحدة.

لماذا؟

كي تكون شبيهتكِ ونسخة منكِ، عندما ألاعبها وأداعبها أشعر أنّني أداعب بيسان الصغيرة.

وأنا أريد ابنٌ منكَ مستنسخٌ عنكَ، عندما أمشّط له شعره أشعر أنّني أداعب شعرَ رفيق الصّغير بأسنانِ الممشط.

بعد مدّة وجيزة أدركت مدى عنف الحياة وكمية شراستها. تطلق عليّ رصاص الهموم، وتقذفني بالوجع وأترصّد لها بالصبر والمقاومة حتى الرمق الأخير، سلبت من كل شيء وصفعتني بكل قسوة وجعلتني أعيش أيّامي المتبقية بأسى، وجعلت قلبي حطامًا.

صحيح أنّي فتاة بأوّل العقد الثاني من عُمري لكن بداخلي طفلةٌ ذي عشر سنوات.

وحياة كمثل حياتي شاقّة ومأساوية على طفلة مثلي.

أتسلّح بالأمل...بالصمود...بالقوة لاكتساب النّصر على الحياة.

لكن هل للأمل معنى؟

وهل للحياة طعم اللذة؟

أشعر أن الحياة لم تنصفني بعد.

قد يسرق السرطان الهالك عُمري وعمر جيلي، أخبّئ قهري وآهاتي وراء قبضان أوردة القلب، الحياة شوّهت أيّامي الوردية وزواجي أصبح حطامًا بين يديها، و رفيق بات ينتظر شريكة حياته لتُشفى من أجل أن يتزوج منها.

حان موعد العلاج الإشعاعي لا أعلم ما رقم هذه الجلسة، ذهبت أنا وأمي ورفيق قد أوصلنا بسيّارته.

طلبت منهما البقاء في الخارج حتى ينتهي الطبيب من مداواتي.

دخلت إلى عنده أمشي وأستند ألتقط أنفاسي لأعاود المشي نحوه، أمسكني قبل أن أقع وأسندني حتى وصلنا إلى الكُرسيّ، أحادثه وأضع يدي على صدري وكأنّني متعبةٌ عائدةٌ من سباق هرولة:

أشعر الآن باقتراب أجلي.

عزيزتي بيسان إننا مخلوقين في هذه الحياة لنحارب ولنصبر ثم لنعيش وفي نهاية المطاف نعود إلى حيثما أتينا.

أعلم ذلك، لكن حال أمي يبكيني!

ما به حال أمّك؟

ستكون وحيدة، فقدت أبي والآن ستفقدني.

هذا حال الدنيا ولا اعتراض على حكمته تعالى.

ونعم بالله.

أرجو منكِ ألّا تفقدي الأمل.

بالتأكيد، إن شاء الله.

رأسي مُثقلٌ بالهواجس والكلمات تكتظ بداخلي، واللآلئ تنهمر على خدّي تمرّ بي الحياة تلطمني وألطمها وإن هدأت قليلًا أعلم أن هذا هدوء ماقبل العاصفة فأستعدّ لأواجهها من جديد.

نسيت طعم النوم وأصبحت أشتهيه أن يمرّ عليّ لو دقيقة وإن جاءني لايطيل بزيارته أكثر من دقائق معدودة، قد أهلكني النوم المتقطّع وبدأت عروقي تجفّ وشعري يتساقط خِصلة تلوَ الأخرى لم يبقَ لي ما أحارب به كجنديّ أعزل الصدر عارِ الصّدر .

عشت آلامي قبل آمالي وكانت الحياة أمرّ من العلقَم معاناتنا معها لا مفرّ منها محتّم علينا أن نعاني منذ تكوّن الأجنة في أرحام أمهاتنا.

خرجت من العيادة وصولًا إلى المنزل، أنطق كلامي وأنا على قيد الموت تدريجيًّا.

رفيق أين أمّي، كانت معنا؟

أوصلتها إلى البيت لأنها تعبت اليوم كثيرًا ومن اللازم أن تأخذ من الراحة حقها.

خيرَ ما فعلت.

أريد أن أحدّثك بشيءٍ مهمّ لا يقبل التأجيل ابدًا.

قولي لي ما الأمر سأنصِت لكِ وأقود السيارة في آن واحد..تفضلي.

من شأن زواجنا لا تحزن، بإمكاننا إنهاء كل مراسم الزفاف وفسخ خطوبتنا.

بيساااان!!!

أنتِ بدراية فيما تقولين؟

نعم، لا أريد أن تظلمك الحياة كما ظلمَتني وتبقى على علاقة مع مريضةٍ غير معروف متى تشفى من مرضها.

استحالة حدوث ما تقولين، لديّ الحلّ الذي يرضينا نحن الاثنين ويجمعنا تحت سقف واحد.

ماهو؟

أن نتزوّج سرًّا، ونثبّته في المحكمة دون إقامة حفل زفاف.

وأمي وجدّتك؟

بالطبع سنخبرهما لا تخافي.

ما رأيكِ؟

دعني أفكّر في الأمر قليلًا.

لا وقت للتفكير أريد جوابكِ الآن.

في العجلة النّدامة يا رفيق.

وخير البرّ عاجله يا بيسان.

وماذا سنقول للناس؟

دعي الناس وشأنهم، الأهم نحن.

لكنّ أمر كهذا سيكون له نتائج سلبية ستنعكس علينا مستقبلًا.

اتركي المستقبل لوقته وفكّري بحالنا.

ماذا قلتِ؟

موافقة.

إذًا على بركةِ الله.

لكن هناك أمر آخر؟

أووه بيسان ما بكِ تحاولين عرقلة هذا الزواج!!؟

ألم تفكر بمرضي وأننا لم نتمكن من إنجاب طفلنا وطفلتنا؟

ضعي كل هذه الأشياء وراءك الآن وعندما تتخلصين من هذا السرطان الأحمق نفكر في كل هذه الأمور.

حسنًا.

إذًا اليوم أخبري والدتكِ وأنا سأخبر جدّتي.

كما تريد.

تمّ زواجنا سرًّا والحمدُ لله.

أنرتِ بيتكِ وأخيرًا.

إنني مسرورة جدًّا، كم كنت أنتظر هذه اللحظة التي تجمعنا تحت سقف يستندُ على أربعة جدران نحتفظ بين زواياه حكاياتنا...ضحكاتنا...ذكرياتنا معًا.

وأنا أيضًا، لله الحمد الذي أكرمني بهذه اللحظات معكِ يا محبوبتي.

ماذا تحبّ أن تأكل اليوم على الغذاء؟

لا تحضّري شيئًا أنتِ إياكِ أرى طبقًا واحدًا على المائدة.

لماذا كل هذا التحذير؟!

لا أريد أن تتعبي نفسكِ في طهي الطعام.

ماذا سنأكل اليوم، ولا لن نتناول شيئًا؟

لا يا ذكيّة؟

ماذا إذن؟

من اليوم وصاعد سأحضر معي الطعام جاهزًا من السّوقِ ولا تتعب أميرتي الحُلوة في إعداده لتجلس هي على عرشها في قلبي فقط وأنا خادمها وكل شيء تحتاجه سيكون بين يديها.

هيّا إذًا اذهب إلى عملكَ وأنت قادم إلى المنزل أحضره معكَ.

حاضرٌ يا ملكتي، وماذا غيره؟

اممم، إلى الآن لا شيء آخر إن احتجت سأتصل بك وأخبرك.

حسنًا.

إلى اللقاء مساءً يا جميلتي، انتبهي على نفسكِ.

مع السّلامة.

كانت حياتنا هنيئة لا مثيلَ لها، تقاسمنا الحب الذي في أفئدتنا قدمت له من حبي وقدم لي من حبه، يحترمني ويقدرني بشكلٍ لا يوصف فكانت هذه الركيزة الأساسية التي بنيت عليها علاقتنا داخل قفص الزوجية وإن انطفأت علاقتنا فترة من الزمن نعاود إشعالها بعود ثقاب المحبة.

كلّ صباح كان يكتب لي رسالة ويتركها بجانب السرير ويضع فوقها وردة حمراء لأستيقظ وأقرأها وأبدأ يومي بحبٍّ وسعادة.

كانت مشاعرنا المشتركة تجذبنا إلى بعضنا البعض، وحان الوقت ليعبّر لي عن مودّته فعندما يكون الجو باردًا يقدّم لي معطفه ويراعي أصغر التفاصيل التي تهمّني، ويفتح لي الباب عند خروجنا من المطعم ويحضر لي الدّواء عندما يحين وقته قبل ان يذهب.

كان يقول لي أنّ السعادة تكمن في البيت الذي أتواجد فيه، و يرى حنان أمّه الذي يفتقده بجانبي ويشعر بالأمان عندما يكون بقُربي.

وأنا أيضًا كنت أرى فيه مثال أبي الذي أشتاقه وندبات الحزن التي تركها ما زالت تؤلمني، كان لي خير أب وزوج كما عاهدني.

كنت متزوجة من شاب جميع صديقاتي يحسدوني عليه وكيف قدّر لنا أن نبقى معًا بقية الدّهر.

كل ما يطلبه مني كان أمرًا وطاعة وبالمقابل لا يرفض لي طلب مهما كان.

هذا الرجل عندما عثر قلبي عليه جعلني أمشي وراءه وتعلّقت بشباك هواه، والذي يحصل بي الآن ليس طبيعي أخذ روحي وعيني معه.

انتهت معاناتي من العلاج الإشعاعي ولأبدأ محاربة جديدة مع العلاج الكيميائيّ، بتّ أتجرّع العقاقير الكيميائية وكل ما أذهب إلى جلسة أعتقد أنها الجلسة الأخيرة.

قيل لي بأنّه يقتل خلاياي السرطانية. يفتتها ويدمرها بلا رجعة ويحرق كل ذرة بها. نعم...لقد صدقوا القول، بل وسأزيد وأقول بأنه يحرقني كلي يحرق خلاياي السليمة قبل المريضة منها. تنسل نقاطه داخل عروقي كما شعلة النار. تتمدد وتجري في كل جسدي دون أن تنسى شبراً منه. كلمة انتهت جلسة من جلساته، اتقد ألماً وحرقةً فأحاول جاهدة إخمادها بالأدوية المضادة والكبسولات المهدئة، دون جدوى.

بدأت علامات الموت تظهر وأنا على قيد الحياة هيكلي العظمي بدأ بالبروز شيئًا فشيئًا، خِصلات شعري المتبقية سقطت مع أخواتها وآخر رمش في عيني قد وقع وأعلن استسلامه، هذه العقاقير تنفث في جلدي فقط لتأخير موتي وساعة أجلي.

ذات يوم خرجت مع رفيق من عيادة الطبيب بعد انتهاء إحدى الجلسات الكيميائية الفتاكة. كان يساعدني بركوب السيارة بعد ان أضناني التعب، فكنت صورة للعجائز المقاربي الموت. أستند إلى رفيق هيكلاً عظمياً بلا أي قوى. شاهدنا حفنةٌ من الشبان اليافعين. يافعين؟ لقد أصبحت موقنة بداخلي بأنني من صنف العجائز والعاجزين. وقفوا بالقرب منا ساخرين من مظهري..بلا شعر..بلا لون...بلا روح. أجلسني رفيق في المقعد الامامي وأغلق باب السيارة بغضبٍ وتوجه بلا تردد إلى أولئك الشبان. حاولت مناداته وردعه عن فعل ذلك. فهم جاهلون لا يعون ما ينطقون به. لا يعون كمية الألم والمعاناة التي يعيشها أي مريض. الحياة مقابل الموت. كنا كذلك، شبان صغار في أوج نشاطهم نقابل فتاة عجوز صغيرة ترافق ملك الموت كل يوم. وبخهم رفيق بشدةٍ ولم يرأف برعبهم منه ومن صراخه، حتى وانه تجرأ على ضرب أحدهم لشتمي ونعتي بالجثة المتحركة. أنهى صراعه وعاد مستشيطاً غضاباً وتحرك بالسيارة مبتعداً عن المشفى.

بحثت عن قارورة الماء والكأس لأملأه وأناوله إياه، لكنّ حتى هذه لم أستطع فعلها، ملأت الكاس حتى بات الماء يطفو على سطحه أمسكه بيَديّ الاثنتين لكن الارتجاف كان يمنعني من أن أعطيه إياه دون أن ينسكب منه الماء، التقطه منّي بسرعة قبل أن يقع من يديّ المرتعشتَين.

سالت دموعي وتحدّرت من طرفيّ عينيّ نزولًا إلى وجنتيّ، أغلقت وجهي وبدأت أشهق.

بيسان لماذا تبكين؟

سامحني يارفيق، أرجوكَ سامحني!.

أسامحكِ على ماذا؟

سامحني على تقصيري في حقّكَ حتى كأس الماء لم أستطع أن أقدّم لكَ إياه ككلّ زوجة تقدمه لزوجها، لكن ليشهد الله أنّي حاولت الإمساك به كي لا يفلت منّي.

لا داعي لطلب الصّفح من أجل هذا السبب يا فلذة كبدي أنتِ.

لكن هناكَ سبب آخر!!!

آها...ما هوا أيضًا؟

أعتذر عن كل موقف محرج تواجدت فيه بسببي و بسبب شكلي هذا.

يا عزيزة قلبي لا ضرورة لطلب استسماح من أجل ذلك.

قلت لكِ بأنني سأبقى هنا بجانبكِ مهما كانت أحوالكِ، ومهما كان شكلكِ...ملامحكِ...أوصافكِ، أنا معكِ في كلّ حالاتكِ وفي علقم الحياة قبل حُلوُها.

أيعقلُ أن تُبكيني الحياة من أجل كأسِ ماء؟

الحياة ليست بعادلةٍ يا رفيق، تحتاج إلى من ينصفنا ونحن على أرضها لا بعد موتنا.

أصرخ لأعلم أنني لا زلت حيّةً لا يكسرني إلا الفناء، الحياة ممكنة يا رفيق ولكن البقاء للأقوى...للأكثر صمودًا ومواجهةً.

ثمّة حزنٍ وهمٍّ ومرضٍ نخجل أن نحكيه، وآخر يبكينا وينتهي الأمر وكأن شيئًا لم يكُن.

هذه الحياة عبارة عن منفى قصير تعيشه بذكائكَ...تعيشه إن كنت قادرًا على مقاومته أو يكتب عليكَ متوفٍّ على قيد الحياة إن لم تحسن المحاربة، لم يعد بمقدوري مسامحة الأيّام على خُذلانها لي...لأحلامي...لزوجي وأولادي الذين لم أرَ ظفرهم حتى الآن أو أسمع ابني ينادني بتقطّعٍ: م ا م ا

سأبقى كلّ عُمري أشتهي حضن طفلي وان ينام وأنا أحكي له قصة ليلة والذئب كما كان أبي رحمة الله عليه يحكي لي إياها، سأكون فاقدة كل مشاعر الأمومة تلك.

حينما تشعر أنّك سجين وسجّانك هو مرضٍ مميت سفّاح يفتّك عظامكَ ويفتتها حينها ستكون حائرًا هل ستقف أمام نفسكَ المكسورة وتواسيها، أم تدير ظهرك وراء كل ما مضى من متاعب وتتابع حياة قدركَ بكلَ ما بقي منكَ من أنفاسٍ.

أنا الآن بأمسّ الحاجة إلى القوّة الجسديّة والنّفسية لمحاربة الفناء الذي سيصل بي هذا اللعين إليه، واجهت الكثير والكثير من المتاعب والمصاعب التي جعلتني أنهار أمام اول نقطة للانهيار، لم أكن يومًا هكذا حائرة خائرة القوى دائمًا كنت تلك القويّة الشامخة التي يكسر شموخها شيء، وكبريائي لم يخضع سوى لحبّك يا رفيق.

الحياةُ إمّا مغامرة جريئة أو لا شيء آخر كقرية لا أمان فيها يدخل فيها المغتالون و يبدأون بقتل أهلها، كذلك المرض يدخل إليك دون طرقة باب أو استئذان ويقتلك دون أن تحتسب ذلك.

حياتنا كرحلةٍ قصيرة، نبدأها منذ صغرنا وعندما نكبر نحزم الرّحال ونجهّزها وننتظر القطار على قارعة الطريق كي يمر ويأخذنا مع باقي ركّابه إلى مأوانا الأخير، وعندما نركب ونهمّ بالرّحيل نخرج يدنا من نافذة قطار الموت ونلوّح للذين بقوا في هذه الحياة ونقول لهم: نتمنّى لكم أيامًا أجمل من التي مرّت علينا.

إن الحياة الدنيا مجرد دار شقاء تحارب وتجازف بكل ما تملك من سلاحٍ وعندما تفقد تسلّحك تحارب بصبركَ...أملكَ...تفاؤلكَ وإلّا ستموت خنقًا...شنقًا...عذابًا...قهرًا، ستموت بكافّة أنواع الإعدام والحياة هي من تنفّذ بك هذه الأحكام بعد سجنك المؤبد فيها لا أدري ما هو ذنبنا...جريمتنا التي ارتكبناها تجاهها لتسجننا مؤبدًا و تعاقبنا بأقبح طرق الإعدام.

بعد معاناتي هذه أصبحت أنظر لحياتي بعين الخيبة واليأس، ترى طفلةً مرحة فرحة بلعبة ابتاعتها لها أمها تنظر للحياة بأنها أجمل ما يكون لكنها لا تعلم ما تخبّئ لها وراء هذا الجمال من عناء، أما فتاة كمثلي ترى أنها عبارة عن نحيب وصراخ ولا هناك من يشعر بها، امرأة عاملة ترى أنها مجرّد مظاهر وشراء ملابس من أثمن الماركات و الشكليات أمام صديقاتها في العمل، تراها العجوز أنّها عيشة ظالمة وقاسية لا نستفيق من ألمِها إلا عند الموت نتيجة للتجارب التي عاشتها.

أنني أتجرعُ الوقت كجرعةٍ مهدئة كذاك السقيم الذي يحتسي العلقم لكي لا يقوده مرضه للجنون، لقد أصبحت أطرافي ترتعش كجرس كنيسة يُعلن أنه حان وقت اللعنة الحياتية التي أخذت كل شيء حتى تساقط شعري ونحلي وحزني وتسارعُ دقات العضلة اليسرى من صدري.

أيقنت أن المرض الذي يقترح له الأطباء أكثر من علاج لا علاج له ولا شفاء منه إلا بإذن ربّ العباد ولو ابتلعت صيدليّة أدوية وسيبقى يتوغّل في أعماقك حتى يصل إلى جذوركَ وتذبل ثم تدفن تحت تراب هذه الأرض.

آلاف من الناس يصفعهم المرض لكنّ القلّة القليلة منهم يردّون له الصفعة ألف صفعة يلطمون بعضهم حتى يربح الصفعة واحدًا منهم والقليل منهم من أصابهم هذا المرض الذي أصابني أنا ويصفعني الآن.

"السّرطان" كانت هذه الكلمة محظورة في قاموس حياتي وأوصدت عليها الباب وأحكمته بقوّة وأقمت لها حجرة في عقلي منعزلة عن محيطها ولم أطرق بابه يومًا، حتى جاء يومًا وطرق بابي ودخل دون أن أسمح له.

وصلت قناعتي إلى أنه إذ دخل إليّ لا يغادرني ولا هناكَ مفرّ لي للهروب منه، وإن غاب عني قليلًا لا بدّ من عودته إليّ، وأنّ نهايتي الحتميّة هي الموت والشفاء منه خيطٌ مقطوع من الأمل، كقاربٍ مثقوب تجدّف كي تصل إلى برّ الأمان لكنّ كل ما تحاول تغرق أكثر فالنجاة منه من المحالِ.

إنّه راقد في جسَدي ينتظر خروج روحي كي ينتزعها بيديه من قدميّ، فالتخلّص والهرب منه طريقٌ محفوف بالألم المميت والشفاء منه من العجائب وأعلم أن عالم العجائب قد انتهى منذ القدم.

قد غرقت في مستنقع اليأس بحاجة إلى من يمسك بيَدي ويشّدني كي أخرج بسلامٍ.

بحاجةٍ إلى من يبثّ فيّ الأمل...يساندني ويساعدني، يقنعني أن لا مجال للسّقوط أبدًا وأن المعافاة مقرونة بتحدّي المرض، حتى وجدت رفيق الذي أمسكَ بيُمناي وخاض معي حربًا لا يعرف ما هي نتيجتها المحسومة.

رُسِم في عينيّ خارطة البؤس يراها كل من ينظر إليّ وأنا أتأوّه.

قد أتعبتني معاملة النّاس أكثر من المرض بعَينه، كلّما أقرّر الذهاب إلى الحديقة لأشتم الهواء قليلًا برفقة رفيق تكسرني تلك النظرات الجارحة بالشفقة عليّ وأودّ لو أستطيع كسرها، وتحطّمني أقوالهم يظنون أنهم يتهامسون فأنا لا أسمع، لكنّ همساتهم ترنّ في مسامعي عندما يقولون: يكون الله بعون زوجها قد حرمته من حياته ومن امرأة تليق به و ولدٌ يحمله على أكتافه يذهب به إلى البقّال، يستحقّ امرأة كاملة لا ناقصة، قد يحين موعد رحيلها قريبًا.

كم أتمنّى أن أقتلع ألسنتهم من أجواف أفواههم لكن لا حول لي ولا قوة، اشتهي أن أقول لهم هو من اختار البقاء معي وأن البلاء يأتي من الله ويعيننا على بلائنا، لتخرس ألسنتهم عمّا تنطق به.

أفتقر للقوّة التي تعطني الأمل والطاقة للذهاب إلى الجرعات المؤلمة والقدرة على مواجهة عدوّي القاهر، ذلك التحدّي أدخله رغمًا عنّي ومهما رفضت واعترضت عن المقاومة لا منفذ لي للهروب والمفرّ من بين قيوده.

يلفّ يديه حول عنقي ويخنقني رويدًا رويدًا، كل جرعةٍ كيميائية يقابلها خنقة...صرخة ألم أفجّر فيها كلّ طاقاتي المخزونة.

كان لا بدّ لي أن أتجاوب مع كل ما يحدث، كلّ ما أشعر به، وأتأقلم مع كل وجع آلمُ به وأعتاد على المُسكّنات كي يهدأ قليلًا وأنام بفضل كبسولاتٍ مضغوطة مسكّنة للآلام.

قد أتعبني السرطان وأهلكني العلاج الكيميائي الذي يسري في أوردتي كالنار المتقدة ولا أعلم هل ستكون عاقبته عافية أم هلاك؟!

غيّر ملامحي وحرمني من أن أتجمّل بشعري وأزداد جمالًا، بينما أنتَ تقرأ الآن ما أكتبه متنعّمٌ بصحة تامّة وأنا غدًا أنتظر جرعة الكيماوي القاتلة.

استيقظنا صباحًا في التّاسعة وإذ برفيق عمري كان يحضّر قهوة الصّباح كالعادة و صوت السّيدة فيروز يملأ أرجاء المنزل.

نهضت من السرير بصعوبة لأغسل وجهي وأعود لتناول القهوة مع زوجي، وأنا أصل بخُطواتي المتعبة إلى غرفة المعيشة غنّت في مقطع معزوفتها "في أمل إيه في أمل".

شردت لبرهة فيما قالته: في أمل، يعني أنا قويّة أحارب بسلاحِ الأمل في رغبتي بالبقاء على قيد الحياة.

وصلت إلى الكُرسيّ المتأرجح الذي أحضرناه أنا ورفيق أثناء شراء أثاث المنزل وجلست عليه وأتى رجُلي المفضل يحمل بين يديه صينيّة القهوة ويضع وردة حمراء داخل كأس الماء الفارغ.

صباحُ الخير لحبيبتي.

صباح النّور، ما هذا النشاط غير المُعتاد؟!!

أنسيتِ جلسة اليومِ؟؟؟

لا.

استيقظت مبكّرًا لنشرب البنّ المغليّ سويًّا قبل ان نذهب.

قدّم لي فنجان القهوة يتصاعد منه بخار يحمل رائحة حبّه أثناء إعدادها، أشتمّ نكهة البنّ قد أجلبه كما أحبّه بحبّات بذر الهالِ الفوّاح وأستنشق رائحة حبّه المختلطة مع القهوة بملعقة الهوى، حان الآن الوقت الذي يقدّم فيه لي الوردة.

تفضّلي غاليتي هذه الوردة هديّتي لكِ في هذه الصّبيحة المشرقة، اقبليها منّي.

شكرًا لكَ، وأنا قبِلتُها.

لكن سؤالي لكَ هو.

ما هو؟

لماذا لم تضع الماء في الكأس؟!

لأنّها لم تعد ترى الذبول بعد أن تمسِكها يداكِ.

يا لكَ من فلهويّ.

أتمنّى أن تعجبكِ تصرّفاتي.

لا تقلق، أحبّ أفعالك الطفولية هذه.

الحمدُ لله، تناولي قهوتكِ و تجهّزي كي نذهب لنحضر أمّك ومن ثم ستكون وجهتنا إلى المستشفى.

حسنًا، سأتناولها دفعة واحدة وأبدأ بتحضير ملابسي، لن أتأخر عليكَ.

كنتُ أحتمل بالكاد الجرعات المعطاة لي بسبب النسبة القليلة من المادة الكيميائية التي كانت تعطى لي بسبب كون المرض في مراحله الأولى. ولكنّ..انتشر المرض في جسدي بلا سابق إنذارٍ كانتشار المياه الطوفان، لم نستطع إيقافه بتلك الجرعات التي أسماها الطبيب بلعب الأطفال

كان لابد من جرعة قوية، لا بد من زيادة السموم التي تضخ في شراييني لتتغلل دمي وتعبث في أعضائي فساداً وفتكاً، ليندثر المرض الذي ما كان بمُندثرٍ رغم كل الجهود والمحاولات الشتى. أثقلني التعب وبتُ لا أقوى على الحراك البتة وعادت الأعراض المقيتة تؤلمني وتؤرق سلامي. أصبحتُ لا أطيقها ولا أقوى على تحملها ومجابهتها بما يسمى" الأمل".

أنظر للمرآة أرى شبحاً، جثة متحركة تنتظر حفر قبرٍ لها. أمسك بأحمر الشفاه لألون به ما تبقى من شفاهي العديمة اللون، ولكنني أغلقه متراجعة عن فعلتي تلك. فهذا الأمر لليافعات، لا يجب على العجائز استخدامه. أغلقت عيني لوهلةٍ علّي أفتحهما لأجد نفسي قد خرجت من هذا الحلم المزعج. مسحت دمعةً كانت قد سالت على وجنتي بطرف كنزتي الصوفية وحاولت الابتسام بصدق لأواجه بها وجه رفيق البشوش.

حسنًا، سأتناولها دفعة واحدة وأبدأ بتحضير ملابسي لنهم بالرحيل، لن أتأخر عليكَ.

تجهّزنا وهممنا بالخروج متوجهين إلى منزل عائلتي. رأيت والدتي من بعيد تقف أمام باب المنزل تنظر إلى ساعتها وتلتفت يمينًا وشمالًا عاقدة أصابعها ببعضها يبدو أنّها تنتظرنا بحرارة أحرّ من حرارة الجمر كان القلق بادياً عليها. متأكدة أنا بأنها تخشى عدم وصولي في أحد الأيام. لذلك جرت العادة بأن تنتظرني امام المنزل لتتأكد من وصولي.

عندما وصلنا إلى مكانِ وقوفها، انفرجت ملامحها وظهر الاطمئنان على محياها وصعدت معنا في السيّارة.

السّلام عليكم.

وعليكمُ السلام.

كيف حالكَ يا بني؟

الحمد والشكر لله.

دائمًا وأبدًا، وأنتِ يا بيسان ما حالكِ؟

آه يا أمي.

ما بكِ يا مهجة روحي!؟

أتحدثُ لأمي بألم أماه ألا يمكنني ألّا أخذ جرعة الدواء اليوم، أيمكنني تسويفها للغد؟ أريد أن أعود لسابق عهدي، للتحدث بطلاقة للحراك بقوة ونشاط، أريد العودة للحياة الطبيعية بلا قيود بلا ادوية ومهدئات، لقد مللت يا أماه، مللت وقد نال النصب مني. حكم امي الصمت لبرهة بعد شكواي تلك، وما بعد الصمت إلا أن قالت: يا بنيتي عليكِ بالصبر فالصبر مفتاح الفرج. أحدثُ ذاتي وكيف أصبر على تآكل جسدي عضوًا تلو الأخر، أماه إنني أموت وليحزنني قولي هذا، ستخرجُ روحي للسماء ويبقى جسدي وما تبقى منه لتأكله حشاشة الأرض بعد دفني ونقلي إلى مثواي الأخير. فما نفع الصبر هنا وكيف للفرج أن يحل على مأساتي؟

لا تحزني يا بنيّتي هذه مشيئة الله، وكما قال "اعقل وتوكّل".

لكنّي تعبت وشاخت روحي وهرمتُ قبل أواني.

قاطعني دفء يد رفيق التي أمسكت بيدي بقوة على حيز غرّة.

بيسان..لا أبيض بلا أسود ولا ظلام يدوم. هناك دائما شمس ستشرق بعد اشتداد ظلام الليل. لا تيأسي، سأبقى هنا بجانبك ووالدتك لندعمك ونساندك في محنتك هذه. اصبري يا بيسان، اصبري فلم يبقى إلا القليل.

يا الله...

كيف يكون لوقع صوته تأثير الحبوب المهدئة؟ انفرجت أساريري عند إمساكه يدي والضغط عليها بقوة. لطالما كان سندي وأماني ومأمني. لطالما كان قوتي.

أحبك رفيق..

ضحك رفيق لدى سماعه قولي وشعر بالخجل أمام والدتي التي انفجرت ضاحكةً من قولي المفاجئ.

هههه ما بالك يا فتاة هل جننت؟ لقد فاجأتني بشدة، وبالمناسبة...

رفع يدي لتقارب شفاهه وقبلها

أحبك بيسان...

دخلنا إلى المشفى وأنا متكئة على ذراع والدتي ومستندة على كتف رفيق لكي أتمكن من الوصول إلى غرفة العلاج الكيميائي. لا أستطيع المشي وحدي، كامرأة عجوز أجرجر نفسي على الأرض كي ألحق بالموت و أتجرعه. لا أشعر بملامسة قدماي للأرض فوزني بات ضئيلاً وجسدي كورقة الخريف يطير لتسحبه جاذبية الأرض، التي أشعر بتضاعفها هذه الأيام، ويسقط مراراً وتكراراً رغم استنادي على اثنين. وصلوا بمشقة واستلقيت على السرير أنتظر قاتلي ليحقنني بالسم. وكما العادة جاء الطبيب ليضع فيّ الأنابيب التي تسمح بولوج الجرعات إلى جسدي. مستلقية هناك أراقب القطرات تنسل ببطءٍ داخلي. وقعها الراتيب يصيبني بالغضب. تغمرني رغبةٌ شديدةٌ بالبكاء إلى ان يطغى الألم على كل المشاعر الأخرى. لقد كان شديداً...شديداً جداً لدرجة لم أتحملها. لم يكتفِ بحرقي..شعرت بأن أحدهم يقطع شراييني بسكين حادةٍ. آلاف الطعنات تعرضت لها في هذه الحلسة التعذيبية. كل قطرتٍ كنت أشاهدها اراها كسكينٍ ضاحكةٍ فرحةٍ بتقطيعها جسدي الهزيل. لا أدري إن كانت نسبة الدواء هي الأقوى...أم أن جسدي بات أضعف. لا أدري...

كل ما أعلمه بأن صراخي ذاك اليوم كان مقطوعة من ألم سمعها كل من اقترب ولو قليلاً من المشفى. فقدت وعيي على فراش المشفى بعد الانتهاء من جلسة العلاج. بدأت امي بالصراخ والبكاء بحرقةٍ ظناً منها بأنني متُّ.

بيسان..بيسان ابنتي الغالية. يا فلذة مبدي وحرقة سنيني وعمري. ظننت بأنني فقدتك..ظننت بأنك ستتركيني لتنضمي إلى والدك بجنان الخلد. صغيرتي الجميلة. لا تتركيني، لا أستطيع العيش بدونك. أقسم بأنني سأموت إن متّي. لا تكسري قلبي كما فعل والدك أتوسل إليكِ. لمن ستتركيني؟ للأيام المنصفة التي ستحفر بي المزيد والمزيد من الالم والذل؟ أم لسنين عجاف لن تنقضي إلا بالموت؟ حبيبتي بيسان..صغيرتي بيسان.

ظلت أمي تكرر أخر كلمتين إلى أن نال منها التعب وحملها رفيق ليضعها على سرير بقربي. لا أدري إن كنت أبكي حينها أم لا. فشعوري بوجهي بات شبه معدوم. لا اشعر بالعبرات تسيل على وجنتي ولابحرقتها. كل ما كان يراودني عند استيقاظي هو السخط والغضب. لمَ لمْ أمت! كانت فرصة ذهبية للموت ووقتاً اكثر من مناسبٍ. كان علي الموت لأنهي ألمي. لكن يبدو أن للقدر رأي أخر بهذا الصدد. لم أخبر رفيق ووالدتي بتلك الهواجس التي تملكتني قبيل استيقاظي. فالموت رحمة لي، لكنه عذابٌ أخر لهم. نقلني الطبيب إلى غرفةٍ أخرى، فقد كان يود القيام ببعض الفحوصات والصور الإشعاعية ليرى الدرجة التي بات عليها السرطان وإن كان هناك تحسنٌ على العلاج الكيميائي أم لا. أجرى الطبيب ما هو لازم ثم نادى لرفيق ليساعدني على العودة إلى المنزل وأخبرنا بأن النتائج ستجهز بغضون بضعة أيام وسيوافينا بها.

كانت جلسة اليوم كسابقاتها. ألمٌ..دوارٌ..وإعياء. اعتدت الأمر، فقد باتوا جميعاً أصحابي في مغامرتي "الشيقة" مع المرض. خرجت أترنح بالرغم من استنادي على كتف رفيق، رفيق الروح. قام بمساعدتي للوصول إلى السيارة وانطلقنا عائدين مع والدتي المتعبة إلى المنزل.

جلست في المقعد الامامي منهكة أشبه ببقايا جثّة حيّة يصعد ويهبط النّفس فيها بصعوبة، اشتهيت النّوم كي أرتاح قليلًا لكن من المحال أن أغفى لو لدقيقةٍ واحدة مع هذا الكم الهائل من الألم.

وصلنا إلى منزل عائلتي، نزلت والدتي من السّيارة و ربّتت على كتفي قائلة بصوتٍ مرتجف محاولة أن تحبس عبراتها وتمنعهم من الخروج من قناتيها الدمعيتين:

بيسان اصبري، لم يبقَ سوى القليل.

أهزّ رأسي عاجزة عن الردّ ولو بكلمة وانا أردد في داخلي، نعم...لم يبقَ إلا القليل لم يبقَ إلا القليل على موتك يا بيسان..اصبري..اصبري.

حاولت أن أظهر امام والدتي قويةً كي لا أقلقها أكثر مما أقلقتها في المشفى لكن المشاعر خائنة دائماً، أدمعت عيناي وبدأت بالسّيلان كعاصفة مطريّة في منتصف شهر كانون.

تمسح بأناملها الحنونة دمعتي، وتردف قائلة لرَفيق:

انتبه على ابنتي، استودعتك الله فيها. فهي أمانتي لديك. هي كنزي الثمين. أرجوك أن تحافظ عليها وتحميها.

نظر رفيق إلى والدتي ثم إلي وقال في حنوٍ:

لا تقلقلي مكانها في قلبي دائمًا.

ابتسمت ابتسامة شاحبة لأثبت لأمّي صحّة ما يقول. أغلقت أمي باب السيارة وراقبتنا إلى ان ابتعدنا عن ناظريها.

توجّهنا إلى منزلنا، كانت حواسي الخمسة متعطّلة تماما حينها، لم أستطع الاحساس بأي شيء الشعور ميّت لديّ، أسمع صوتًا بعيدًا كأنه من داخل الكهف، إنه رفيق يحدّثني لكنني أفقد تركيزي في ما يقوله.

وصلنا إلى منزلنا وعندما فتح الباب كي يحملني ،بسبب عدم قدرتي على المشي خطوة واحدة، عاد بصيصٌ من الشعور بما حولي، بت أسمعه قليلاً و أحسّ بمحاولته جاهدًا أن يحملني، وعندما تمكن من ذلك لفَفْت ذراعي حول عنقه محاولة مني للمساعدة والأخرى التفّت حول زنّاره.

فتح الباب بعناءٍ شديد، ووصل إلى غرفة النّوم وألقى بي على السرير. استلقيت و رحت أغطّ في نومٍ هستيريّ لأول مرّة لمدّة خمس دقائق! خمس دقائق فقط وأيقظني الألم مرّة أخرى كعادته، لا بأس اعتدت على منبّه الألم ونغمة أنينه.

كان هذا اليوم بالذات من أصعب الأيام التي عشتها من بعد يوم وفاة والدي.

أحدهم كان مملوءًا بالحزن والأسى والآخر بالوجع والألم. أما اليوم فقد جمع شتى انواع المشاعر.

يأس، ألم ،أسى، حزن، كره حقد وشفقة. شفقة على ذاتي الشابة. ذاتي التي كانت شابة. فقد أضحت هذه الأيام أشبه منها للعجوز، لا بل اقرب للجثة كما ذكرت مئات المرات سابقاً. لم أعد أعلم من أنا، فرغبتي الجامحة بالحياة انطفأت.

كان مازال هناك شرارة أمل وشهوة لهذه الحياة. لكنها انطفأت وباتت رماداً مع نهاية جلسة تعذيب اليوم. قضيت اليوم وأنا أودّع أيّامي الأخيرة المتبقية لي في هذه الدّنيا وأبدأ مسيرتي الدنيوية من المقبرة وصولًا إلى يوم الحساب. لم أعد أحسب الأرض موطني. بت أشعر بالحنين إلى المقابر، أشعر بالاشتياق لرائحة القبور وكأنها صديقتي منذ نعومة أظفاري.

كنت أظنّ أنها ساعاتي الأخيرة وبعدها سأنتقل للسّبات تحت ترابٍ يغطونني به إلى حين يشاء الله فيه أين يخرجنا من تحته ومن ثمّ كل منّا يلقى حسابه ويسلك طريقه إمّا إلى جنّات نخلد فيها متنعّمين ناسين كل عذاب الدنيا المر،وإما إلى هاوية جهنّم حيث يلقون عذاباً أشدّ وأمر بملايين المرات عن عذاب الدنيا.

أتمتمُ بصوتٍ منخفضٍ كي لا يسمعني رفيق:

هكذا هي أيّامي حتّمت علي أن تحرمني من أحلامي،

عشت الألم وعشقت المعاناة بتّ أنا والرّاحة أعداء.

إلى متى ياقلبي ستؤلمنا هذه الأيّام، وإلى متى سأبقى أتحمّل المكابدة والمقاساة وأصبر على المشقّة؟

أنستطيع أن نأخذ فرصةً نغيّر هذا الروتين المتعب وننسى الكميائي قليلًا ونضيّع الطريق إلى المستشفى؟

إلى متى سأكتم الآلام؟.

لكنّ رفيق كان واقفًا وراء باب الغرفة وتمكّن من سماعي، دخل عليّ فجأة عاقدًا حاجبيه من شدّة غضبه:

ماذا كنت تقولين منذ لحظات؟

لمَ لمْ تطرق الباب قبل أن تدخل لقد أرعبتني !؟

جاوبيني على سؤالي الآن؟

كما سمعت آذانكَ.

نحن ألَم نتفّق أن ننسى المرض خارجًا قبل دخول هذا البيت؟

نعم.

ماذا إذًا؟

آسفة.

يا بيسان... لا أريد أن تتأسّفي لكن أحكي من أجلكِ والله.

أعلم، لكنّه يأبى أن يتركني...ماذا أفعل له؟

تناسيه...تظاهري بنسيانه.

ليس باستطاعتي.

تقدّم نحوي وجلس على يساري شدّني إليه وبكيت في حضنه...صرخت...فرّغت طاقتي السلبية المختزنة، بكيت وبكيت وبكيت.

رفع رأسي بيَدِه ومسح الدمعات المتبقية على وجنتيّ وقال لي بعينتين ترويان قلبي بنظراتيهما المليئة بالحبّ:

حينما أعانقكِ وأحني رأسي فوق رأسكِ وتسكبين فوق صدري دموعكِ.

حينها فقط أحسّ باكتمال رجولتي.

أضحكُ تلك الضحكة الهستيرية التي لا تخرج إلّا معه:

أنتَ رجُلي وبنظري كاملُ الرّجولية لا داعي لدموع امرأة أن تكمل نصف رجولتكَ.

استيقظنا في اليوم التالي متأخرين، منهكين من تعب البارحة، إحساسي يوم أمس باقتراب أجلي حرّك عواطفي وفاض قلبي شوقًا إليكَ يا أبي.

لمَ تركتني وحدي في هذه الدّنيا القاسية أحاربها بمفردي و رحلت عنها؟ أكان المرض سيجرؤ على الاقتراب مني لو كنت هنا؟ إن هذه الحياة قاسية بلا أبٍ، بلا قوّةٍ خالصةٍ خلقت لدعمك بلا

قيود أو حدود. ما الذي تفعله الآن؟ هل تشاهدني من السماء؟ أرجو بأنك لا تراني، فحالي لن يسرك البتة.

هل ستستقبلني بحفاوة لو أنني قررت الرحيل والعيش معك في السماء؟ أم انك ستطردني ولن تسمح لي بالبقاء؟ سآتي لزيارتك اليوم فهناك الكثير مما أود قوله لك، هناك الكثير في قلبي ولن يفهمني غيرك يا غصة العمر.

رؤياه في حلُمي و هو يجلس تحت شجرة وارفة الظّلال بجانب نهرٍ يجري وحمامة بيضاء ترتوي منه ماداً لي يده طالباً منّي المجيء إليه حالًا عاجلًا.

انقطع الحلم واستيقظت مرتعبة، مازال الحلم يؤرقني. حاولت إقناع نفسي بأنه مجرد حلم ولكن هيهات العقل بيسان وإن كان تعباً أن لا يؤل الأمور إلى ألف معنى ومعنى.قررت أن أتسلل من المنزل رويدًا رويدًا دون أن يشعر رفيق بذهابي. كان قد غط في النوم جالساً. فتركته على الأريكة نائما وانطلقت لزيارة والدي العزيز.

رأيت أبي يمدّ لي يده، إنه بحاجتي!

يجب أن أذهب إليه فورًا.

ارتديت ملابسي و انتشلت مفتاح المنزل وحضنت كتاب القرآن الكريم واتجهت بلا تردد إلى المقبرة حيث يرقد أبي بسلام.

عندما نزلت لاستقل سيّارة أجرة تذكّرت أنني لم أكتب رسالة لرفيق كي لا يقلق عليّ إضافة إلى ذلك نسيت هاتفي الخليوي على الطاولة بجانب التلفاز سيجن جنونه إن استيقظ ولم يجدني ولكن، ما باليد حيلة، لا يمكنني العودة الآن فإن رآني رفيق لن يسمح لي بالذهاب وحدي إلى المقبرة وسيرافقني، أود الحديث مع والدي على انفراد.

تابعت طريقي وأنا أنظر من نافذة السيارة إلى الشوارع الملأى بالناس، يا لهم من جاهلين لا يعلمون بأن الموت يتربص بهم من كل حدبٍ وصوب. هززت رأسي بقوة محاولة إبعاد هذه الأفكار الخرقاء من عقلي.

صعدت السيارة ونسيت إخبار السّائق إلى أين سأتوجّه، قاطع شرودي بسؤاله:

عفوًا منكِ يا أخت إلى أين تريدي الذهاب؟

شردت مرّة أخرى في سؤاله، ماذا سأجاوبه؟

خذني إلى أبي من فضلك.

وأين هو والدكِ، أعطني اسم المكان؟

إلى مقبرة مارتينز.

حسنًا.

تابع طريقه بسكوتٍ تام يستمع إلى أغنية موسيقية خافتة، مما ساعدني إلى إكمال شرودي....

غادرت واقعي و عدتُ إلى عالم الشّرود مجدّدًا...

البارحة كان أكبر أحلامي وهمومي أن أتزوج من رفيق وأتمم دراستي الجامعية أما اليوم فأكبر همّي أن أتخلّص من حياتي هذه. باتت شاحبة بلا طعم ولا لون، لا تستحق العيش.

كيف للحياة أن تنقلب رأساً على عقب؟ كيف لفتاةٍ في مقتبل العمر تجاهد كي تضع بضع قطرات أو جرعات في دمها لتكمل بعضا من حياتها بينما يجب أن تكون أمام مرأتها تضع مساحيق للتجميل و تحاول تسريح شعرها بسرعة لأن المحبوب ينتظر..

ما أريده لا يحصل وما لا رغبة لي فيه قد يحصل.

قاطع خيالي صوت صفّارة شرطيّ المرور وأصوات السّيارات ها نحن قد ننتظر أن تفتح إشارة المرور، التفتّ للوراء وإذ الطريق مكتظّ بالسيارات

أمعنت النّظر في الطريق جيّدًا، ليس بغريب عني. فذلك الطريق مألوف جداً، رأيته العديد والعديد من المرات قبل اليوم.

استشاط السائق غضباً من الازدحام فبدأ بقذف عدد من الشتائم والألفاظ النابية علّها تسرع من الحركة بعض الشيء، قاطعته بسؤالي السّخيف بنظره:

ما اسم هذا الشّارع؟

شارع الميدان.

وتابع باستخفاف:

أيوجد شخص في هذه المدينة لا يعرف اسم هذا الشارع!!!

أعرفه، لكن منذ أربع سنواتٍ تقريبًا لم أمش به ولم تطأه قدماي.

أحادث ذاتي في قرارة نفسي:

هذا الطّريق الذي كنتُ أمرّ منه بعد عودتي من مدرستي الابتدائية كان أبي ينتظرني على هذا الرّصيف كنت أرتمي في حضنه وأعانقه عناقًا شديدًا ثمّ أمسك بيَده ويشتري لي بعضاً من حلوى غزل البنات الذي أستلذّ بتناوله ونعود معًا للمنزلِ. هذا ما اعتده عليه في صغري. دائما ماكان بالقرب مني في حزني قبل سعادتي. فس شدتي قبل رخائي. أبي...رحمك الله يا قلباً وسع الكون أجمع. رحمك الله يا سكر العمر.

قطع شرودي صوت السائق الذي يعلن وصولنا إلى الموقع المحدد. ها قد وصلت...أعطيته ما يلزمه من نقودٍ ونزلت وعيوني تتلفت هنا وهناك أبحث عن مرقده، لم يخطر ببالي سوى مشهد الدّفن وكيف كنتُ أودّع قطعة منّي وأترك ليحيى بين أيادٍ اعلمُ بأنّها رحيمة به أكثر من دنيا ظالمة.

خطوت داخل المقبرة وأحسست بارتعاش قلب غريبٍ لم أشعره من قبل مسكت القطعة اليُسرى من صدري بيَدي وأكملت الدخول.

فاض شوقي ولم تنفعني إلّا جملة " بعد بُعدٍ سنلتقي"

كنتُ أواسي نفسي عقلي حائر وعيناي تائهة أكملت خطُواتي ووصلت إلى حيث نام جسدُ أبي.

قرأت الفاتحة على روحه وبدأت أناجيه متأكّدة أنه يسمعني:

مرحبًا يا أبي.

كيف حالكَ؟

لا تغلّب نفسكَ بالردّ عليّ اسمعني قليلًا فأنا بحاجة إلى من يسمعني، أنا بحاجةٍ لشخص يفهمني بلا شفقة، أبي..

يا من اشتقت إليه شوق الظمآن للماء. رحم الله جسدك الطاهر وطاب منامك الطّويل، قد هزّني وجع الحنين إليك، قد كواني بعدك يا غصة العمر. سامحني يا أبتي أنا لا أبكيكَ اعتراضًا على حكم ربّي بل أبكيكَ حبًّا...شوقًا...اشتياقًا...لهفةً...

أبكيكَ بكل أنواع الشوق.

سامحني يا أبتي إن آذيتك وجرحتك بدموعي فليس للمشتاق حولٌ ولا قوّة.

ليتكَ هُنا كي ألجأ لحضنكَ، إلى حضن من سألجأ الآن؟

ماذا عن ابنة اشتاقت لصباحٍ يبدأ بصوتِكَ؟

ونهار يحلو بضحكتكَ؟

ومساء يطيب بحديثكَ؟

كلّما أراهم يتحدثون عن آبائهم أبكي حرقةً وأغمض عينيّ وأقول ربّ لا تؤذِ قلوبهم بفقدانهم فوَالله إن الفقد صعب.

أتصدّق يا أبي؟

إلى الآن لم أستطيع أن أصدق خبر وفاتك حين قرع في مسامعي وأغلقتها من شدة قوّة هذا الخبر الذي صعقني.

لم أتصوّر غيابك عنّي ورحيلك لطريق ذهاب بلا عودةٍ. ظننتهم يمزحون، ظننتك ستعود يوماً. لطالما تخيلتك عائداً إلينا محضراً لي بعضاً من حلواي المفضلة. لطالما تمنيت تحقق هذه الأمنية.

اشتاقكَ عندما أحزن.

أشتاقكَ عندما أفرح.

أشتاقكَ عندما أنكسر.

أشتاقكَ عندما أفعل شيئًا تحبّه.

أشتاقكَ في كلّ لحظة أعيشها بدونك.

شوقي إليكَ بات يكويني ويميتني ألمًا، رحلت عنّي مبكّرًا وظللت فجوة في داخلي تؤلمني وتزداد وساعةً كلما أرى فتاة تحتضن أبيها.

أخذك منّا الموت لم أتوقّع أن يُسلب منّا أغلى ما لدينا لقد دُفنتَ و دُفنَتْ بجواركَ أجمل التفاصيل التي عشناها سويًّا، فليشهد الله أنني تعبت العيش بدونك، عندما فقدتك فقدت الحياة وأنا على قيد

الحياة، مات قلبي و بهتت روحي وذبلت الدّنيا في نظري. لم أتأقلم مع رحيلك أبداً، ولن أفعلَ أبداً أيضاً.

متى ستزورني؟

أو أنا التي سأزوركَ قريبًا؟

لا تخف يا أبتي لن أتركَكَ وحدكَ سآتي إليكَ عما قريب وأرقد بجانبكَ لأؤنس وحدتك التي طالت عليك وعليّ.

أخذكَ ربّنا الكريم كي يريحكَ من المرض الذي أكل جسدك ويزيل عن روحك الألم الذي كواها ومزقها إرباً، وأنا لا بدّ من أن يأخذني إليه، إلى ديار الحق أيضًا، لأنّ الألم اجتاح أوردتي وقتل شراييني.

أمسكت بالقرآن الكريم، قبّلته ثلاث قُبلات ووضعته على جبيني ثمّ فتحته و أسميتُ بالله فاتحةً صفحاته برقّة الأن الحنون على سورة "العنكبوت". بدأت بقراءتها بتمعّنٍ وإتقانٍ بالأحكام التجويديّة اللازمة وإعطائها حقّها في القراءة. وصلت عند الآية ﴿٥٧﴾ التي تقول:

" كلّ نفسٍ ذائقة الموت وإلينا تُرجعون" .

قرأتها بصوتٍ جهوريّ ثم أصابني الصمت.

تذكّرت هذه السّورة التي كان يقرأها أبي كلّ يومٍ وبالأخصّ هذه الآية، كان يعيد تلاوتها ثلاث مرّاتٍ ويكمل بعدها تلاوة السّورة بأكملها.

تناثرت الدّمعات على وجنتيّ بلا استحياءٍ وبللت صفحات كتاب الله، مسحتها ورحتُ أتأمل الآية وأغوص في معانيها بدقةٍ.

أتذكر يا أبي هذه الآية؟

كنتَ تحبّها كثيرًا وتقرأها كل يومٍ قبل أن تخلد إلى نومكَ متيقّنًا أنه سيأتي يومًا لن تستيقظ فيه وترحل عن هذه الدّنيا بلا وداع.

الآية تقول بأن كلّ نفسٍ بشريّة أينما كانت فإنها ستتذوق مرارة الموت وستتجرع علقمه، مهما كان لونك أو شكلك أو حتى دينك فلا بد أن تنتهي رحلتك في هذه الحياة بالموت و بعد ذلك نرجع إلى ربّ العالمين لنتحاسب كل على عمله.

هذا ما جعَلني أصبر أنّنا سنعود إلى ذات المكان ونُدفن كلّنا في جوف الأرض وننتظر اليوم الذي نُحاسب فيه على يدِ الغفور الرحيم ذو الكرم.

لازلت أبكي الليالي بكاءً جنونيًّا شوقًا للقياكَ.

أما عن حال أمي فيُرثى له.

أصبحت امرأة ثكلى بعد ما فقدت زوجها، فلا مأوى ولا سند ولا ظهر سيسندها بعد فراقها لنصفها الآخر، باتت ناقصة بغيابكَ فلا فرّق الله بين زوجين.

دائمًا تتساءل أهيَ حياتي هكذا أم قدري كُتب هكذا؟

لا أدري لماذا أعاقب بهذه الطريقة؟

كنت أستمع لما تقوله عندما تكون بمفردها، لو تعلم كم آلمها غيابكَ يا أبي كانت تتمتم بكلماتٍ كسرَها الفقد المرّ، ذات يومٍ دخلت إلى غرفة المعيشة صباحًا رأيتها تمسك بصورتكَ التي أخذتها لكَ في لقطاتي الأخيرة، تعانقها وتقول بحسرةٍ:

عندما اختفيت من حياتي لازالت الحياة كاملة لكن تنقصها الحياة ذاتها من دونك قلبي وعُمري منتهي فأنا أعيش بجسدٍ دون روح لأنّ رُوحي دُفنت تحت الثرى فعندما أشتاقكَ أتذكّر كلماتكَ و أُدندن أغانيكَ ومواويلك وأتذكّر بعض التفاصيل والذكريات معكَ كي أستطيع العودة إليكَ فربّما يهدأ نار شوقي قليلًا.

أشتهي العودة للوراء كي أضمّك وأشتمّ رائحتكَ لكّنك لم تخبرني بموعد رحيلكَ، صحيحٌ أنك رحلت لكنّك لا زلت معي وترافقني في كلّ شيء إلّا واقعي.

اشتقتُ لكَ بحجم الآلام والنّدبات التي تركتها وبكائي المرير عليكَ يا غصّة العمر.

صمتّ قليلًا، قد نسيتُ أن أُخبركَ عن زوجي..رفيق.

كم تمنّيتك بجواري يا أبي...تمنّيت وجودك عند قدومه لخطبتي، لتفحصك إياه إن كان مناسباً ام لا، تمنيت وجودك عندما ارتديت بذلتي البيضاء التي تشبه لون ديسمبر أن تمسك بيَدي وتقدّمني لفارس أحلامي على حصانٍ أبيضٍ كما يحلمْنَ كلّ الفتيات. تمنيت وجودك بكل لحظةٍ حلوةٍ كنت قد مررت بها.

دخلت قفص الزوجية الذّهبي مع شخص كان أكبر النّعم التي أنعم الله عليّ بها من بعدكَ، كان عِوضي عنكَ و سندي في هذه الحياة الغدّارة التي لا أمان فيها.

كالسراج هو ينير لي حياتي ويبدّد ظلام أيّامي الحالكة، أنا منه وهو منّي لا نفترق أبدًا وإن ابتعدنا تبقى قلوبنا متجاورة فيما بينها. عندما تزوّجته أصبحت حياتي جنّة لا أعلم كيف كنت سأعيشها بدونه.

لو تعلم كم يشبهكَ في تفاصيلكَ، الحنان نفسه والمحبّة ذاتها بل أكثر حتىّ...أرى فيه أبي الذي حُرمتُ منه مبكّرًا، أصبح لي أب قبل زوج و أخ قبل رفيق، إن الحياة رزق وهو رزقي في هذه الحياة.

عندما ارتديت خاتمه ظننت أنّني سأكون بخير مع أحنّ رجلٍ في هذا العالم والحمدُ لله لم يخِب ظنّي فيه فكان ملجأي ومأمني قبل أماني. هو السلام لكل أيامي. هو رفيق دربي، رفيق سنيني وأحلامي.

قضيت النّهار بأكمله بجانب جثمان أبي حتى جفّت دموعي وانتهت كلماتي.

حملت قرآني واتجهت نحو مخرج المقبرة مغادرةً المكان. أخذت سيارة أجرة واتّجهت نحو منزلي مطمئنة مرتاحة البال والخاطر والقلب.

طوال الطّريق كنت أذكر ما حدّثته إياه وإذا نسيت شيئًا أخبره عنه لكنّي كنت حدّثته عن كل التفاصيل التي جرت من بعده.

وصلت إلى باب المبنى، نزلت من السيارة ودخلت البناء ووقفت أمام باب المنزل أبحث عن مفتاحي الذي نسيته على الطاولة قبل أن أذهب، يبدو أنني متعبة اليوم حتى لم أذكر أنني تركت المفتاح في المنزل.

سمع رفيق صوت على الباب قفز مُسرعًا كي يفتح لي الباب ليُطمئِن عيناه برؤيتي سالمة غانمة.

فتح الباب وعانقني بقوةٍ ثم أجلسني على كُرسيّ التحقيق عاقدًا حاجبيه وأصابعه ملتفّ القدمين يرفع واحدة تارةً ويرفع الثانية تارةُ أخرى.

ينفث غضبه بأسئلته الكثيرة:

أين كنتِ إلى الآن ولمَ لم تخبريني أنّكِ ذاهبة؟

كنت أزور قبر أبي لم أذهب منذ وفاته، لم أخبركَ لأنني أودّ الذهاب بمفردي ولم أشاء أن أزعجكَ رأيتك غارقاً في النوم.

هذه ليست حجّة!

صدّقني.

ولماذا من الصباح إلى الليل...لست ملزمة، زيارة الميّت إن طالت نصف ساعة؟!

هذا أبي!

وكان بحاجتي ومن حقّي أن أقوم بواجبي تجاهه حتى لو كلّفني الأمر البقاء الدّهر كلّه.

من قال لكِ أنّه بحاجتكِ؟

رأيته في نومي يمدّ لي يده!

على حدّ ما أعلم أنّ قد وافته منيّته ربّما منذ أشهر أو أتمّ عامه الأوّل.

ماذا يريدُ منكِ؟

ماذا تستطيعين فعله؟

إنّه انتهى منذ زمنٍ ولم يعد موجودًا قط، انتهى منذ اللحظة التي رُميَ فوق جثّته التّراب.

آها.... أبي انتهى بالنسبة لكَ!

اسمعني جيّدًا رفيق...إن أبي انتهى عمره في هذه الدّنيا وانقطعت مياهه الجارية في هذه الحياة لكن حبّه لم ينتهِ في قلبي مهما حييت.

أودُ سؤالك أن الآن!

أسمعكِ.

إن ذهبت لزيارة قبر أمّك هل ستكون زيارتكَ خمس دقائق؟

بالطّبع لا.

إذًا لماذا برأيكَ زيارتي هذه كثيرة عليه؟

كما هي أمكَ...هو أبي أيضًا.

الحقّ معك فعلًا، آسف و لكنني كنت شديد القلق عليك اليوم لم أعد أتحمّل فلقد اختفيتِ ليومٍ كاملٍ تقريباً، اعتقدت أنك تركتِ المنزل...وتركتني.

كيف لي أن أترك كَوني وكياني، عالمي ووجداني؟!

لن تتركيني؟

ستتركني أنتَ؟

لا، ملتصقٌ بكِ طوال الحياة، لا تقلقي.

وأنا كذلك.

كان صباح اليوم التالي مشرقاً وسمائه صافية كصفحة الماء الهادئ أردت أن أفاجئ بيسان بإعدادي لها فطورها المحبب، بعض البيض المقلي مع كأسٍ من اللبن البارد رغم بساطته إلا أنها كانت تشعر بأنها تتناول وليمةً فخمة عند تناولها إياه أعددت أيضاً بعض القهوة وكما جرت عادتي وضعت وردةً حمراء في صينية التقديم. أسرعت لإيقاظها فرحاً ومتلهفاً لرؤية ابتسامتها المشرقة التي ستكمل جمال هذا الصباح لقد مرت بيوم قاسٍ البارحة ولابد لي ان أروح عنها بعض الشيء. جلست على السرير بالقرب منها ووضعت يدي أمسح رأسها، ولكن يبدو أنها متعبة جداً هذا الصباح فليس من عادتها عدم الاستيقاظ فور لمسي لرأسها، فنومها كان ليس بعميق.

مسحت رأسها عدة مرات وأنا أكلمها وأردد اسمها

بيسان..بيسان استيقظي لقد حل الصباح ياحلوتي، ألا تود صغيرتي الجميلة احتساء القهوة وتناول الفطور؟ بيسانة قلبي هيا كفاك نوماً.

بدأ القلق يتسلل إلى قلبي والهلع تمكن مني عند عدم استيقاظها، بت أصرخ باسمها عالياً و أهزها بعنفٍ علّها تفتح عينيها وتريح قلبي.

لم تنطق شفاهها بكلمةٍ واحدة ويدها لم تحرّك ساكن، اصفرّ لوني وعجزت عن فعل أي شيء يساعدها. لقد ماتت!! أخبرني صوتٌ بداخلي أنها ماتت. أسرعت و انتشلت الهاتف اللاسلكيّ وضغطت على رقم الإسعافات من شدّة هلعي اتّصلت برقمٍ خاطئٍ عاودت الاتصال بالرّقمِ الصحيح وطلبت سيارة الإسعاف حالًا.

حينما وصلوا حملتها إلى السيارة لم أنتظر السرير النقّال من شدة قلقي عليها وخوفي. طوال الطريق كنت أحاول إيقاظها لكن دون جدوى.

وصلنا إلى المستشفى و دخل الطبيب برفقة الممرضين والممرّضات وبيسان في الدّاخل معهم راقدة بلا حراكٍ على السرير.

انتظرت مطوّلًا خروج أحدهم ليخمد نار قلبي المشتعلة لكنّهم دخلوا من دون خروج.

خرج ممرّضٌ منهم الحمدُ لله بعد طول انتظار.

كيف حالُ بيسان طمئنّي عليها؟

كان وجهه لا يبشّر خيرًا البتّة لم يجب على سؤالي ولو بإيماءة أو إشارة وجه، تابعت الانتظار مجينًا وذهابًا أعقد يديّ خلف ظَهري، قد خرج جميعهم وبقي الطبيب في الدّاخل ولم يخبروني بأي شيء عنها. بت شبه متأكدٍ من موتها..نعم لقد ماتت، ماتت قرّة عيني، ماتت وتركتني وحيداً أصارع الحياة عاري الصدر.

واصلت الانتظار علَّ ظنوني تخطأ. خرج الطبيب من غرفتها بعد بعض الوقت، أمسكته من ردائه الأبيض وسالته بحدّةٍ:

كيف حالُها بيسان؟

كيف حالُ زوجتي؟!!

زوجتكَ!!!!

تزوجتم؟ ومتى؟

لا يهمّ، المهم هي الآن؟

انا أسف...ولكنها الآن في حالة سُباتٍ.

سُبات!

تقصد غيبوبة؟

نعم.

وهل...هل..هل ستستيقظ منها!

طأطأ الطبيب رأسه أرضاً وأجابني بصوتٍ فارغٍ من الأمل..

الأمر بيد الله، لقد قمنا بما نستطيع. فلتوكل أمرك وأمرها لله.

اهتزت بي الأرض، شعرت وكأن زلزالاً ضرب قلبي وقسمه. سقطت على الكرسي الكائن خلفي، لقد كان منذ البداية خلفي..وكأنه يعلم حق اليقين بأن قواي ستخور وسأسقط جالساً عليه. لم أعد أسمع أي شيءٍ من حولي. فقدت الأمل لأول مرةٍ منذ مرض بيسان. لطالما تمسكت بقشةٍ، لطالما وجدت قشةٌ في بحر آلامي الذي أسبح به، ولكن الآن...غرقت تلك القشة، واسودّ العالم من حولي....انفجرت بالبكاءِ....لأول مرةٍ أبكي!!

ربّت على كتفي يتحسّر على حالنا التي بتنا فيها، سألته ودموعي تغرقني إن كان بإمكاني زيارتها والمسح على رأسها، لكنه رفض أن أقرّ عيني برؤيتها:

لا تستطيع الآن، ربما غدًا أو بعد غدٍ.

رفضه كان كقذيفة اقتحمتني... حبيبتي هناك، تستلقي وحيدةً... متألمةً، وأنا أمنع من الدخول لمواساتها في وحدتها.

لأوّل مرّة لم أتركِ، لكن لماذا اخترتِ تركي أنتِ أولاً؟ هل الغلبة لمن يسارع بالذهاب اولاً؟

هل الراحة من نصيب المبادر الأول بالهرب من هذي الحياة؟

انقضى النّهار ببالغ الحزن، لم أخبِر والدة بيسان بالذي حصل، فلو أنني أخبرتها سيحزن قلبها وستنهار ولن تسامحني بيسان على فعلتي هذه مدى الحياة، سأبقى بجانبها نيابةً عنها وسأعتني بحبيبتي بنفسي.

استلقيت ليلًا على الكرسيّ في صالة المشفى ساتراً جسدي بمعطفي القطنيّ وراودني النوم شيئًا فشيئًا ورحت غارقًا في لذته.

استيقظت اليوم التالي باكرًا، أبحثُ وأسأل وأستفسر عن الأطبّاء لكنّي لم أذكر اسم طبيبها، تعبت من صعود و نزول الطوابق حتى عثرت عليه وقال لي أنّه قد اطمئن عليها وأنّها على قيد التّحسن لكنّها تحتاج وقتًا لتتعافى، وبإمكاني زيارتها ساعةً واحدة فقط في اليوم.

ساعةٌ واحدة ليست بكافية لأحكي لكِ كم قلقت عليكِ وماذا فعلتِ بي بسباتك المفاجئ هذا، لن يكفيني الوقت لتأمل عينيكِ النائمتين الجميلتين.

دخلتُ إلى غرفة العناية المشدّدة كانت مستلقية في حالة سكون على السّرير تتنفس الأكسجين الاصطناعيّ عبر الأنابيب، وجهها أصفر شاحب يميل إلى اللون الأبيض تقريبًا.

جلست بجانبها على السّرير ألمس رأسها كما اعتدت وأمسك يدها، كانت في حالة من اللّاوعي لم أستطع تخيّلها.

هل أنتِ بخيرٍ يا بيسانتي وريحانة قلبي؟

هل أنتِ على قيد الحياة؟

هل أنتِ نائمة أم مستيقظة بعينتين مغلقتين؟

لماذا تقابلي أسئلتي بلامبالاة؟

ردّي عليّ ولو بإشارة إصبع!

يكفيني منك أن تحركي رأسك ولو قيد أنملة كي أطمئن قلبي الظمآن لحركة أو كلمة منك.

ثقي بأنّني هنا دائمًا.

ثقي بأنّني بجانبكِ دهرًا.

ثقي بأنّك تملكين زوجًا يخاف حزنكِ وبؤسكِ...مرضكِ وتعبكِ، وأنني أدعو للكِ دائمًا أن يشفيكِ الله شفاءً لا يغادر سقمًا، فأنا أحبكِ بعدد ما ينبض قلبي من نبضاتٍ خوفًا عليكِ. سأحرص وأحافظ عليكِ جيّدًا بعد اليوم، ربّما قصّرت معكِ في الآونة الأخيرة، وإن سقطتِ سأسندكِ على كتفي وإن تعثّرت سأضع يدي بيَدكِ ونكمل الطريق سويّةً جنباً إلى جنب، سأحميكِ من بؤس هذه الحياة وشراستها، سأبقى معكِ دومًا يا حبيبة عُمري. كل ما أريده منك في هذه اللحظة أن تستيقظي وتثلجي قلبي برؤيتك بصحة وعافية. هذا جلّ ما أطلبه، أعدك بأن لا أطلب شيئًا آخر عدا هذا.

لا تطيلي سكوتكِ وأنتِ تعرفين أنّكِ أكثر شخص أشتاق إلى كلامه ويقلقني غيابه. صمتك هذا يقتلني، يقطع أوصالي وما من شيءٍ يمكنني فعله لردع الأمر. ما حصل معكِ خارجٌ عن سيطرتي، أقسم بأنه ولو كان بمقدوري أخذ مرضك هذا وزرعه داخلي عوضاً عنك ما ترددت لثانية بفعل ذلك. لكن لا حيلة ولا قوة لي في هذا الصدد. الامر كله بيدك، عليكِ أن تقاومي

المرض، عليكِ أن تعودي قوية كي نعاود بناء أحلامنا سوية. بيسان...أنا هنا بجانبك، أنتظرك أبد الدهر.

قد لا أكون أحبّك بما يكفي، لكنني أحببتك بصدق و بكل ما أكتنفه من حبٍّ يا أول قلبٍ أحبّه وآخر قلبٍ أهواه.

كلّما جاءت ذكرى ذاك المرض اللعين الذي أصابكِ كالشّيطان الذي يلتبس الإنسان آبيًا أن يرحل عنه، أصابني الهمّ والحزن، ولكن عند تذكري كمّ الصبر الذي تختزنينه في هذا الجسد الهزيل يخفّ حزني بعض الشيء. إن كنتِ تسمعيني الآن، أوصيكِ بالاستعانة بالصّبر علّه يكون تكفيرًا للذنوب والخطايا ليكون الجّزاء جنّة عرضها السماوات والأرض فلا يليق بكِ غير الجنة يا جنّتي.

طُرق الباب بخفّةٍ:

سيّد رفيق، قد انتهى موعد الزّيارة بإمكانكَ الخروج الآن.

حسَنًا.

أمسكت يدها بشدّة أكثر، وقلت لها مودّعًا إلى زيارة أخرى:

لن أنساكِ من دعائي يا حبيبة العُمر، ولن تجدي منّي إلا كل المواقف التي تعينكِ على ما أصابكِ وتكسب رضاكِ.

فأنتِ زوجتي...وأنا زوجكِ

فاصبري "إنّ الله مع الصّابرين".

قبّلت يدها ومشيت إلى الأمام باتجاه الباب ورأسي متجهٌ للخلف يرقب بتمعنٍ عينيها المغلقتين.

خرجت أنتظر على الكُرسيّ مجدّدًا كسجينٍ ينتظر زيارة أحدهم لكن أنا من سأقوم بزيارتها هذه المرة تبادلت الأدوار.

وضعت قرآني بين يديّ وأسميت بالله فاتحًا صفحاته لأقرأ سورة البقرة على نيّة شفائها. انقضى النّهار وأنا جالسٌ أمام باب الغرفة ممرّضة تدخل وأخرى تخرج، وأنهيت قراءة سورة البقرة عندما حلّ ظلام الليل الدّامس ليخبرنا أنّ وقت الاسترخاء والنوم قد حان. تمددت على الكُرسي كوضعيّة البارحة أتخذ من المعطف القطنيّ ذاته غطاءً ليعزل عن جسدي قليلًا من برودة نسيم هذه الليلة، بقيت أتقلّب طوال اللّيل ربّما كانت وضعيّة النوم مزعجة لم أعتد النوم بهذه الطريقة سابقًا، استيقظت صباحًا على همسات الأطباء يشكّلون دائرة من خلال اصطفافهم بجانب بعضهم بعضًا يتحادثون فيما بينهم عن حالِ المرضى، ألقيت عليهم التحية الصباحية بغية أن أطمئن على حال زوجتي:

صباحُ الخير.

صباحُ النّور سيّد رفيق، ألَم تتعب من النوم هُنا على هذا الكرسي؟!

نعم، لكِن ملزمٌ كي أبقى بجانب زوجتي.

كيف حالها اليوم؟

بخير الحمدُ لله.

أستطيع الدخول ورؤيتها؟

نعتذر منكَ الآن، يمكنكَ بعد الظّهيرة الدخول مع باقي الزائرين لمرضاهم.

حسنًا.

عدت إلى مكان جلوسي أنتظر ....وأنتظر....وأنتظر.

ملّ الانتظار مني، وعقارب الساعة كما السلحفاة تمشي ببطءٍ لامتناهٍ كي تذقنا وجعاً فوق أوجاعنا المتكدسة. استمرت عقاربها بالدوران شيئاً فشيئاً مصدرةً ضوضاء لم ألحظها قبلاً في باقي الساعات. مشيت في ممرات المشفى قليلاً علّ الوقت يباغتنا ويمشي لو دقيقة. ذهبت إلى مقهى المشفى لشراء بعضٍ من القهوة، كان طعمها مقززاً ولكني ازدردتها دفعة واحدة لحاجتي الملحة لبعض الكافيين كي يبقي على بعضٍ من نشاطي. أخرجت هاتفي من جيبي بعد أن تعب من الرنين المتكرر، كان اسم والدة بيسان يظهر على الشاشة مما بث الخوف في صدري.

ما الذي سأخبرها به؟

كيف لي أن أخفي الامر عنها ؟يجب علي أخبارها! ولكنه أمر خطير يارفيق فلتتروى قليلاً ولتتصل لترى ما تريده والدتكَ في القانون منذ الصباح.

مرحبًا أُمّي.

أهلًا بكَ يا بنيّ، كيف حالك؟

وكيف حال ابنتي بيسان؟

هل أنتما بخيرٍ؟ لمَ لم تجبني على اتصالاتي السابقة؟

وهاتف بيسان مغلق منذ يوم أمس أيضًا...لماذا؟

من كثرة أسئلتها أصابتني بالارتباك ولولا أخذي للاحتياطات لكان لساني ذلّ بالحقيقة أمامها:

لا تقلقي علينا، بيسان ضجرت قليلًا البارحة فاقترحت عليها أن نذهب إلى شاطئ البحر ونبقى هناكَ لمدّة أسبوعٍ علّها تستعيد قواها ونشاطها وتتجدد روحها.

فقط هكذا؟ ألم يحصل شيئًا آخر؟

صدقيني لا.

أعطني إياها إذًا أتكلم معها.

آسف، فقد أطلنا السهر البارحة ولازالت نائمة إلى الآن.

كيف تذهبان من أمركما دون علمي؟؟؟

ألم يخطر لكما بأنني سأقلق؟! ستسوء حالتها هكذا يجب ان تعودا على الفور هذا تصرف مرفوض.

لا تهتمي، فنحن أخذنا كافة الإجراءات وإن حصل شيء لا قدر الله المستشفى قريب منّا.

حسنًا، ابنتي في وديعتك يارفيق، لن أسامحك إن أصابها مكروه!

فلتكوني مطمئنة لا تقلقي، مع السلامة.

أنهيت المكالمة وأنا أكبح البكاء الذي كان يقف في وسط حنجرتي بصعوبة، رفعت رأسي إلى الأعلى مغطياً وجهي بيدي علّ الجاذبية تعود بدموعي إلى مكانها، فلا يجب أن أضعف، ولا يجب أن أنهار الآن. بيسان ووالدتها يعتمدان علي، يجب ان أكون قوتهم التي لا تنضب.

أنهكت من قضاء يومين متتاليين في المشفى بلا اي راحة. لذلك اتخذت قراري بالخروج لبضع ساعات لزيارة جدتي وتبديل ملابسي.

تركت رقمي الهاتفيّ عند الطّبيب كي يتّصل بي إن حدث أي شيء مفاجئ، ركبت سيارتي وقمت بتشغيل الرّاديو. لم أسمع موسيقى فيروز منذ أيامٍ معدودةٍ. أسير على أنغامها في طريقي وأنا شارد الذهن. أتمعن الوجوه و الناس من حولي، ذاك الرجل يجلس هو وامرأته في الحديقة وأولادهم يمرحون ويلعبون من حولهم، وآخر يحمل ابنته فرحاً متباهياً بجمالها فيأخذها إلى البقّال ليجلب لها بعضًا من الحلوى اللذيذة، وامرأة تمشي متبخترةً برفقة زوجها فخورةً باختيارها وإنجازها الذي سبقها الكثيرون إليه، ويبتسمان..ربّما يذكران لحظاتهما الجميلة قبل الزّواج.

الجميع يبدو عليه الرّاحة والسرور. الجميع فرحٌ بما آتاهم الله من نعم، إلا أنا والقلّة القليلة من أمثالي نجلس عابسين مقطبي الحاجبين ودمعتنا أقرب من بسمتنا، يا لها من حياة غير عادلة. نصيب غيري من الحياة الابتسامة ونصيبي أنا الهمّ.

أهيَ لم تنصفنا؟

أم أنا من اخترت هكذا؟

أنا الذي اخترت الزواج منها فأنا السّبب بكوني الضحية في هذه القصة المأساوية، دائمًا أزرع الورد في أرضها القاحلة وهي متعبة لدرجة أنها لا ترى نزيف روحي الداخليّ.

كلّما أنظر إلى بيسان لا أرى فيها شيئًا يدفعني للمضي قدمًا...زوجة شبه منتهية عبارة عن عظام متحركة فقط، لا أجد سوى حياة بائسة تنتظرني معها..فلا أمل يلوح بالأفق.

أركن السّيارة لأفكّر قليلًا في حالي هذا، أحبّها كثيرًا لكنّني فاقدٌ لحقوقي الأبوية قبل الزوجية فيها، جميع زملائي يرون زوجاتهم مقرًّا لحقوقهم سواء كانت زوجية...أبويّة....إلخ.

وحينما أنظر أمامي لا أجد حلُمًا صلبًا أو ذكرى تعينني على البقاء والتماسك.

أنظر لنفسي بمرآة السّيارة، من أنا اليوم؟

من أنا؟

أنا بضع أعضاء ممزقة من أيّامٍ سحقت شبابي مع مريضة سرطان!.

أنا ذلك الشخص الذي يجمع آلامه داخل أشلائه ويسترها بملابسه خوفًا أن تراها زوجته وتشعر بالذّنب والنقصان!.

أنا ذاك الطفل الذي فقد أمّه وتركه والده عندما توجّب أن يكون بجواره!.

نعم...أنا ذاك الطفل الذي لم يدرِ ما هي الطفولة ولم يذق طعمها!.

أنا الزوج الذي أتعبه حمل الأمانة وقسمت ظهره.

أنا الأب الذي لم يعد قادرًا على العيش دون ابن يحمل اسمه وابنة تحمله طوال حياته!.

أنا ذاك البريء الذي سلب منه القدر حقوقه رغمًا عنه، أم زواجي من بيسان هو من سلب مني كل شيء؟!...

لو تزوّجت غيرها لكنْت أكثر إنسان سعادةً الآن.

لكنّني أحبّها فوق معدّل الحب حبًّا ووعدتها لن أتركها أبدًا.

تباً..لم أعد قادراً على التحمل أكثر، ولكن يجب علي ذلك.

لكن يجب ان يتلاشى ضعفي هذا واظهر بكامل قوّتي وثباتي على وعدي أمام بيسان ووالدتها.

نعم يارفيق...الضّعف ليس للرجال والرّجوع عن العهد لم يكن من شيَمِهِم.

شغّلت محرّك السيارة وعاودت وجهتي إلى منزل جدتي...قد تأخرت كثيرًا، وصلت إلى عندها بسرعة البرق قبل المطر.

طرقت الباب بقوّة على غير عادتي.

فتحت لي بهلع وارتميت في أحضانها أبكي لم أشعر بما كنت أفعله، كنت كالطفل الصغير الذي ينتظر الحنان من أحدٍ ما. ينتظر حضناً دافئاً ليحتويه. مسحت جدتي على رأسي وأدخلتني المنزل، صنعت لي كوباً مز القهوة وجلست تستمع إلى نحيبي ساعةً كاملة دون أن تصدر أي كلمة أو تعليق. انفرجت أساريري بعض الشيء بعد شكواي وبكائي وهممت بالذهاب للاستحمام. شعرت بالمياه تسري على كامل جسدي وكأنها مياه مقدسة تجري وتأخذ معها كل ذنوبي. تصاعدت الأبخرة من جسدي لدى انتهائي من الاستحمام. شعروا بأنني ولدت من جديد بعض إفضائي ما بسريرتي. ارتديت الملابس التي جهزتها جدتي لي وجلست قليلاً لأودعها وأعود إلى بيسان.

بقيتُ شاردًا فيما مضى من عمري هباءً منثورًا....

قاطعت شرودي بخوفها المُبالغ فيه إنّها تخاف عليّ من أن يمّسني الضرّ، دائمًا كانت تصرّ عليّ أن أحكي لها ما يجول في خاطري لكنّي لم أوافقها ولا مرّة باستثناء اليوم، هزّت كتفي بيدِها الضعيفة:

رفيق...رفيييييق!!!!

فوجئت بما فعلت :

نعم ياجدّتي؟

أين تسرح في خيالك؟

مابكَ؟

لست على مايرام؟!

أنت لست رفيق الذي أعرفه!.

لا تقلقي مجرّد ضغوطات....

ستقنعني أن الضغوطات ستفعل بكَ هكذا؟!

نعم، ربّما ستفعل هذا وأكثر.

أحمل هماً كبيراً على عاتقي ياجدتي. بيسان أمانة برقبتي، لا أحد يمكنه الاعتناء بها غيري. ولايمكنني تركها الآن في هذه المرحلة..لايمكنني.

رفيق أنا جدّتكَ وأنتَ ربيت وكبرت بين يديّ لقد اعتنيت بك منذ نعومة أظفارك، لست بغريبة عنكَ، قل لي الحقيقة وبما تشعر لا تخفي عني شيء أرجوك، فأنا أموت قلقاً عليك كل يوم. هل مللت من هذه المسؤولية؟ هل مللت من بيسان

وضعت فنجان القهوة واعتدلت في جلوسي تهيّئًا لأبدأ لها بالحديث...بصدق.

أنا متعب جدًّا من حمل هذه المسؤولية.

بيسان ومرضها الخبيث. أشعر بأن السرطان قد أصاب قلبي معها. تعبت مت والدتها التي دائمًا ما توصّيني بها وتزيد الحمل حملاً علي، أخاف يومًا أن لا أكون قادرًا عليها، ومن ناحية أخرى اكتشفت مؤخراً بأنني أضيّع أجمل أيّام الشباب والصّبا معها لا ولد ولا تلد، لا حب ولا زواج.

اسمعني بني...لطالما لم أؤمن بالزّواج عن حب و بأنه سينتهي بالحب حتمًا، بقناعتي سينتهي بالفشل أكثر الأحيان فلا شيء يدعى بالحب، لا عشق ولا هيام. جميعها مشاعر كاذبة.

والأمر يعود للزوجين وعلاقتهما.

ربما يبنون حصنًا خياليًّا يرعون به حبهم الخيالي ويعتنون به ليزدهر حقيقة، ولربما دفنوه تحت مسمى الزواج التقليدي، في النهاية الأمر منوط بالظروف حتى أكثر من الزوجين. بيسان شخص جيد لك وأنت جيد لها، لكن الظروف عاكست حبكم، لقد أديت واجبك اتجاهها وأكثر عليك أن ترى حياتك يارفيق وتسير قدمًا.

ماذا تقصدين بأن أذهب و أرى حياتي!!!

من المحال...من المحال أن أتركها وحدها في هذه المحنة الشّاقة. يستحيل أن أرميها لقمة سائغةً لمرّ الأيام الباقية لها. لن أهجرها مهما حصل.

من ذكر أمر الهجران يا رفيق؟

لا تتركها، تزوّج مرّة ثانية فقط!

وقفت مذهولاً مما تنطقه شفتا جدتي. أطلت النظر إلى وجهها وأجبت بغضب،

ماذا....أتزوّج!!!!

لا يمكن أن تشاركها امرأة أخرى صفحة في دفتر عائلتنا.

لماذا؟

لا أريد كسر قلبها، يكفيها ماهي فيه الآن.

تفكيرك جاهل.

أمن حسن الفكر تفكيرك الآن، أتزوج على بيسان! جدتي أرجو منك أن لا تعيدي هذا الأمر على مسمعي أبدا...أبداً!!

أنت مذنب بحقّ نفسك فعلًا.

أين ذنبي في الأمر؟

أي رجل هذا لا يقبل أن يتزوّج كي يبني عائلة ويزيّنها بامرأة وأطفال يملأون حياته سعادةً؟!

أنا.

أنتَ، أنتَ أحمق.

نعم أنا أحمقٌ، كما تريدين...أحمقٌ لأنني لم أقبل بالزواج من امرأة أخرى.

ولأنّكَ متعلّقٌ بها وهي بين الحياة والموت لا تدرٍ متى ترحل للأبد.

أنا هكذا، سأبقى متعلقٌ بها ومتمسّكٌ بهَواها حتى رمقي الأخير.

خرجت من الباب مسرعًا وصفقته ورائي بقوّةٍ. جلست في السيارة ونظرت إلى مرآتها الأمامية، تخيل لي رؤية شبح ابتسامة تعلو محياي فصفعت نفسي وانطلقت مسرعاً إلى أحضان جميلتي النائمة.

طوال الطريق كنت أشعر وكأن النيران تتأجج داخلي وتنفث خارجاً من أذني من شدة غضبي من كلام جدتي، حلّقت بسرعة تجاوزت السّتين مترًا في الثّانية وخلال عشر دقائق تواجدت في المستشفى، استقبلني الطبيب وهو يحمل هاتفه في يده وينقل رقمي عليه كي يتّصل بي:

أهلًا رفيق، فعلًا كما يقال في الأساطير.

ماذا يقال؟

"ابن الحلال عند ذكره يبان".

هل حصل شيء لبيسان؟!

لا أبدًا.

لكن اقترب موعد الدخول لزيارتها، تبقّى ربع ساعة بإمكانكَ الانتظار قليلاً.

حسنًا.

جلست أحارب وأطرد الوساوس التي اختلقتها جدّتي بكلامها وجعلتها كالذباب تطير من حولي وتؤرقني، لا...لا لن أتزوّج غيرها مهما حصل. ليس وهي على قيد الحياة وفي هذا الوضع لن أفعل هذا، فأنا لست بخائن، سأبقى على العهد يا بيسان، سأبقى على العهد.

قاطع تفكيري الطبيب وهو يقول لي بأنّه قد حان موعد الزيارة، لم أصدّق ما قاله من شدّة شوقي لرؤية أميرتي النّائمة في فراشها، هرولت مُسرعًا إلى الغرفة و عند وصولي وقفت لحظة ألتقط فيها أنفاسي المتقطّعة وأروي لهثي بالرّاحة قليلًا.

جلست إلى جانبها وقبّلت جبينها ومسحت على رأسها ممسكاً يدها...كم اشتقت معانقة أصابعي لأصابعها، اشتقت للشعور بدفئها ولمستها الناعمة:

دعوت لكِ البارحة كما وعدتكِ، وبإذن ربّنا الكريم أنا متيقّنٌ كل اليقين بأنه سيشفيكِ شفاءً لا يعقبه ضرٌّ ويزيح ألمكِ ويريح جسدكِ، فهو الله الكريم القادر على كل شيء أنتِ فقط عليكِ أن تكوني قويّة الإيمان قوية القلب، وأنا على استعداد أن أشاطركِ حزنكِ قبل فرحكِ و مأساتكِ قبل سعادتكِ...أعدكِ سأكون دائمًا معكِ ولن أخذلك.

أنتِ لستِ حبّي الأوّل بل الأخير أيضاً، حبّكِ إن أصاب قلبًا متآكلًا رمّمه وأعاده فتيًّا بكامل قوته ونشاطه، الحبّ معكِ له معنىً آخر...مفهومًا آخر، لقد كنتِ الأولى وستبقين الأولى في كلّ شيء في حياتي...وعمري...وفؤادي والوحيدة التي تلمس قلبي يا كل قلبي وفرحة مهجتي.

لن أتخلى عنكِ أبداً لأنني أشعر دومًا أنكِ ستستيقظين يومًا، وأنا سأحاول إيقاظكِ بالقبلات وبشتى الأشكال سأقول لكِ "أحبّكِ" كل يوم آلاف المرات إلى أن تملي مني وتفيقي.

قمت لأقبّل رأسها علّها تستفيق، قبلة أولى...ثانية...ثالثة...رابعة شعرت أن إصبعها لامس يدي بلمسات ضعيفة، نظرت إليها رأيت إصبعها يتحرك مرة أخرى ثمّ نقلت نظري إلى عينيها فرأيتها تحاول فتحها والاستيقاظ لنعود ولنعيش سويّةً كما تعاهدنا. جرت قشعريرة لذيذة في جسدي .

بيسان...استيقظتِ!!! لقد علمت بأنك ستستيقظين.

الحمدُ لله، يا الله كم كنت خائفًا عليكِ..خشيت أن تتركيني وحيداً أصارع الحياة المرة بلا سندك وحنانك. لا تتركيني هكذا مرة أخرى، فأنا لا شيء بدونك.

صمتت في الدقائق الأولى وبدأت تستوعب أين هذا المكان التي ترقد فيه، ثمّ نظرت إليّ نظرات استغراب، تتساءل بتعجّبٍ واضح:

رفيق! ما الذي حدث حتى أجلبتني إلى هُنا؟

لا تخافي، سُبات ومرّ بسلامٍ.

سبات! تقصد بأنني كنت في غيبوبة؟!

نعم يا عزيزتي

كم مضى على نومي إذاً؟

ثلاث أيامٍ.

وأمّي، أين أمي؟! لمَ لمْ تأت؟! هل هي على دراية بما حصل؟

لا، قلت لها أنّنا اخترنا البقاء في البحر أيّامًا قليلة وسنعود قريبًا. لم أشئ إقلاقها.

خيرًا ما فعلت يارفيق.

لقد نسيت من فرحتي أن أخبر الطبيب بأنّكِ استيقظتِ وأخيرًا. سأعود انتظريني.

ذهبَ رفيق ليخبر الطبيب ويأتي به ليطمئن علي، لازلت متفاجئة بالأمر، لكنّني كنت أسمع كل شيء كان يقوله لي رفيق وأشعر بلمساته وقبلاته حتّى. وكأنني كنت في حلمٍ عميق لا أقدر على الاستفاقة منه.

يا له من حلم عميق....

لم أعلم بأن السبات هكذا. من المؤلم سماع عائلتك تبكي عليك وأنت حيٌّ لا قدرة لك على الكلام، من المؤلم الشعور بدفئهم دون مبادرتهم بلمسة حنان، كان رفيقًا حقيقيًّا لي، بل أكثر من ذلك لم يبتعد إلا وقتًا قليلًا عني في محنتي. أنا محظوظة بامتلاك زوجٍ كرفيق... زوجٌ محبٌ مراعٍ، أدامه الله لي.

جاء رفيق بالطبيب، دخلوا إلى الغرفة والابتسامة تنير وجهيهما:

الحمد لله على السلامة بيسان، زوجكِ كان طوال الوقت قلقًا عليكِ ولم يفارقك مهما أخبرناه بعدم فائدة وجوده، علينا الآن إجراء بعض التحاليل والفحوصات لكِ قبل موافقة الخروج من المشفى لنطمئن على سلامتك ونرى تطور وتراجع المرض لنرى كمّ الجرعات التي ما زلتِ بحاجتها.

هل ستستغرق هذه الأمور وقتاً؟

لا، بضعة ساعات فقط.

حسَنًا.

استلزمنا ساعتين لإنهاء الفحوصات والصور الشعاعية اللازمة. عُدنا لمنزلنا من جديد بعد غياب.

مرّ الوقت إلى ما تقارب الثامنة مساءً، همّ رفيقي لتحضير العشاء لنتناوله معًا قبل الخلود للنوم بعدها، جلست على الكرسيّ أتأمل المنزل بعد فترة غياب عنه..ثلاثة أيام مرّت مثل عشر سنواتٍ طويلة شاقّة. ظننت أنني لن أعود، اعتقدت بأن حلمي العميق سيطول إلى الأبد ولن أستيقظ منه إلا بلمسةٍ حنونةٍ من والدي. ولكن..والحمد لله استطعت الاستيقاظ والعودة إلى دفئ منزلي..إلى معاناتي وآلامي عدت من جديد.

ناداني رفيق قاطعًا شرودي كي نتناول طعام العشاء لأن النعاس رغم نومي ثلاثة أيامٍ قد حلّ علينَا كعادته، سكب لي كأس الشّاي قائلًا:

كم اشتقت لتناول الطّعام والتلذذ بكأس الشّاي معكِ.

وأنا أيضًا كذلك.

لو تعلمين كم افتقدتك، لم أشعر بلذة أي شيء حتى الهواء فقد أطلتِ الغياب عليّ، لا تكرّريها مرّة أخرى أرجوك.

هذا بيد الله يارفيق، هذا بيد الله. أتمنى أنا أيضًا بأن لا أبتعد عنك مهما حصل، لا أريد الابتعاد عنك.

أخفضت رأسي كي لا يلحظ رفيق الدموع التي أغرقت عيناي.

انتهينا من وجبة يومنا المسائيّة واتّجهنا نحو السرّير لنرقد إلى صباحٍ جديد.

رفيق أتدري أمر ما؟

ماذا؟

كنتُ أسمعكَ عندما تتحدث إليّ، لكن كنت خائرة القوى لا أستطيع الردّ عليكَ.

حقًّا!

نعم.

وماذا كنت أقول لكِ؟

كنت عندما تأتي أحس بلمسات يدكَ على رأسي وكنت أستمتع لكلامكَ الجميل الذي لا حرمني الله منه ولا منكَ، وتردّد دعواتك لي على مسامعي، كنت أشعر بقبلاتك وبحنو لمسة يديك التي تمسح بها على رأسي كل ساعة وكل يوم، وددت لو بإمكاني إمساكها وتقبيلها ولكنني كنت بلا حولٍ لا أقدر على الحراك أو الكلام. سمعتك تبكي، احترق قلبي لدي سماعي بكاءكَ... تمنيت الموت وعدم سماع نحيبك علي... ما بالك؟ لم لا تجيب؟

اغرورقت عينا رفيق بالدمع ودفن وجهه في صدري باكياً منتحبًا كالطفل الصغير.

لا أريدك أن تتركيني وحيداً. لا أريدك أن تموتي، لمن سأشتكي مرارة الحياة من بعدك؟

من سيدفئني بلهيب شوقه وغيرته؟ من لي غيرك أنا محب؟

بكينا تلك الليلة كثيراً إلى أن غفونا من تعبنا.

استيقظنا صباحًا على صوت رنين هاتفٍ مزعجٍ، إنّه هاتف رفيق يخرج صوت رنينٍ مزعج جدًّا، أيقظته كي يردّ أو يغلق الهاتف وتهدأ الضّجة التي أثارها منذ هذا الصّباح:

رفيق...رفيييق**!**

ماذا تريدين منذ الصّباح؟

ألمْ تسمع هذه الضوضاء**!**.

أسمعها أين المشكلة، ضعي رأسكِ تحت الوسادة فتختفي قليلًا.

هاتفكَ يرن، قُمْ أطفئه أو ردّ على من يتّصل دعني أعود لنومي قليلًا.

رفع رأسه وتناول هاتفه كان موضوعًا بجانبه على السرير.

بيسان**!**

ماذا...لمَ لمْ تردّ على الاتصال؟

إنها جدتي من تتصل**!**

ردّ عليها ربّما تحتاجكَ في شيء.

أهلًا جدّتي.

أيقظتكَ من نومكَ على ما أعتقد، لماذا أنت نائم إلى الآن؟

نعم، متعبٌ من البارحة قليلًا.

أحصل لكَ شيء؟

لا لا، انشغلت بإخراج زوجتي من المستشفى وإجراء بعض الأوراق اللازمة لها.

قلت لكَ تزوّج امرأة غيرها، ستريحك وسترتاح أنتَ معها أيضًا.

أرجوكِ، تعرفين ما هو قراري في هذا الشأن.

نعم أعرفه، لكن سأبقى وراءكَ حتى تتزوّج.

لا تتعبي نفسكِ، لأن لا جدوى في هذا الأمر.

سترى لاحقًا إذًا، لم تعرف من هي جدّتكَ حتى الآن.

أتريدين منّي شيئًا؟

نعم، أودّ زيارتكم مساء اليوم وأرى ماذا حصل بتلكَ التي سُحِرتَ بها.

أهلًا وسهلًا، نحن بانتظاركِ.

هل من شيءٍ ما؟ هل جدتك بخير؟

نعم نعم إنها بخير وتود زيارتنا الليلة.

لماذا كنت ترفض شيئًا كانت تطرحه عليكَ وربّما تأمركَ بفعله؟

لا، لا تطلب منّي فعل شيء.

خرج من السرير بغضبٍ لم أعهده به من قبل، يبدو بأن جدته تحاول إجباره على أمرٍ يكرهه، لا أدري لكنني قلقة من زيارتها الليلة.

شعرت بشيءٍ غريب في حديثهما، وددت لو استطعت سؤاله عما دار بينهما من حديث ولكنه لاذ بالفرار فور إنهائه المكالمة. نهضت من السرير يعتريني بعض النشاط جهزت الفطور وبعض القهوة لنحتسيها على صوت فيروز الصباح، بعد الانتهاء من هذا الروتين الصباحي قمت بترتيب المنزل بعض الشيء تجهزاً لزيارة الجدة، كان القلق يعتريني ولا أدري سبباً له. حتى أن رفيق على غير عادته، بقي معكر البال متوترًا طوال النهار بعد اتصال جدته به صباحًا. انتظرت حلول الليل بفارغ الصبر، انتظرت للمرة الأولى قدوم جدته على أحر من الجمر، دقت الساعة السابعة ودوى نقرُ أصابع جدته العجوز على الباب. كانت كما سمفونية رعب في أحد الأفلام، سبع دقات للساعة مع سبع نقرات متتاليةٍ على باب المنزل. تردد رفيق لوهلةٍ قبل أن يسرع بفتح الباب.

أهلاً جدتي تفضلي بالدخول.

دخلت الجدة كما الساحرة في قصة بياض الثلج مكشرةً عن أنيابها والشر بادٍ على محياها. قمت بتحيتها ومددت يدي لمصافحتها فأبعدتها بلامبالاةٍ وطلبت مني تركها مع رفيق لوحدهم.

نظرت مدهوشة من تصرفها هذا إلى رفيق ثم أمسكت بيدي وانسحبت إلى غرفة النوم بلا أي رد أو صد.

دخلت إلى الغرفة وبدأ الغضب يعتريني من فعلتها الغير مبررة هذه. وقفت وراء الباب أنصت إلى ما تقوله بصوتها العجوز الخافت، يا إلهي كم هي خبيثة حتى صوتها أكاد أبذل جهدًا شديدًا كي أسمع منه كلمة حتى تمكنت بجهد من التقاط بداية حوارهم:

اجلس أمامي هنا واسمعني الآن لا تحاول الهرب من هذا الحديث فسوف يحدث ذاته عاجلاً أم آجلاً.

قبل أن أجلس، لماذا طلبتي منها الانسحاب من الجلوس معنا، ستشعر بالحزن لهذا الفعل.

لا تستبق الأمور ستعرف الآن.

تفضّلي.

ستتركها أم لا؟

لا، قلت لكِ مسبقًا و انبرى لساني من كثرة إلحاحي عليكِ أن تنسي الأمر فأنا رافض للفكرة من جذورها لا تزعجي نفسك بالأمر فالحديث معي خاصة بموضوع الزواج كما الكتابة على الرمل، سيمحى وينسى.

لا تتركها، تزوّج..ما الذي يمنعك؟

لا أريد ...لاااا أريد.

يا بنيّ شرعًا وقانونًا يحق لك الزواج من أربعة نساء، لا تتزوج سوى مرة ثانية وبيسان اتركها على ذمّتك. من حقك الحصول على زوجة تشبع رغباتك وتعطيك حباً وحناناً وطفلاً**!!** طفلاً يحملك في كبرك، يساعدك حين تعجز وتلجأ إليه في المحن.

لا أريد ولا أقبل بغيرها مهما كان السبب ولو يحقّ لي بالزواج من مئات الفتيات وجميع نساء هذه الأرض فلن اتزوج غيرها ،لن أقلل من شأنها ومن أنوثتها التي يؤلمها فقدها بسبب المرض.

وإن قلت لكَ ستتزوّج وبالقوّة؟

بالقوة؟**!** زواج بالقوة**!**

لا شيء يحصل بالقوة رغمًا عني لن تقدري على إرغامي بالقيام بالأمر.

بلى، سيحصل و سترى لاحقًا وتدركَ أنني كنت على صواب. ستدرك بأنني أقوم بهذا من أجلك..من أجلك فقط.

حتى إن أدركت لا يمكن أن تشاركها فيّ امرأة أخرى أبداً. لن امون انا والمرض والحياة كلها عليها.

رفيق...سأعطيكَ مهلة يومين لتفكّر جيّدًا، لا تتسرع بقرارك. فأنت رجل ولك حقوق.

لا أريد منكِ مدة تحددين فيها لي أن أفكّر في شيء أنا أرفضه من الأساس. يومين أو مئة، لن يتغير قراري.

في العجلة النّدامة يا بني، لا تتعجّل من يسمعكَ يعتقد أن لم يبق غيرها في هذه الأرض الشاسعة.

نعم، بنظري هي الوحيدة التي تعيش على هذه الأرض الكرويّة، ولا أرى في عينيّ غيرها.

هل يرضيك هذا؟

لا أود فعل ذلك ولكنك تجبرني على التمادي يارفيق!

التمادي؟ كل هذا الكلام والصخب والصراخ ولم تصلي حد التمادي بعد؟ ما تعريف التمادي عندك!!

أين هي الآن؟ أين زوجتك الحبيبة بيسان؟!

في غرفة النوم على ما أظن، ما الذي تريدينه منها الآن.

سأذهب إليها وأتكلّم معها بنفسي. فالكلام معك لا نفع منه.

لا، قفي عندكِ.

ابتعد عن طريقي.

لن أبتعد.

ابتعد عن طريقي!

نادتني بصوتٍ حانقٍ وكأنّها تريد قتلي بيديها:

بيسان أيتها الساحرة، تعالي إلى هُنا حالًا. تعالي!

خرجت وأنا أمشي متأرجحة بسبب عدم توازني، وصلت ووقفت أمامها أرتعد خوفاً من الداخل، ثمّ أمسكتني من ذراعيّ بقوةٍ مهدّدة:

اسمعيني جيّدًا، إن لم تتركي رفيق بشأنه ليتزوّج ستندمين. لا تتركيه وابقي زوجته وعلى ذمته ولن يقصر معك بشيء، لكن لا تحرميه نعمة زوجةٍ صحيحة وأطفالٍ يزيّنون حياته بسبب حبّه لكِ!

أنت تغضبين الله بفعلك هذا، أنت تحرمينه من الحياة تحرمينه من أبسط حقوقه، يجب أن تتركيه يذهب. دعيه وشأنه.

وقعت على الكرسيّ كسائلٍ لزج ينصهر تحت أشعّة الشّمس، لا أدري هل أنصدم مما فعله زوجي أم ممّا قالته جدّته؟ فلا كلامها كان بدرجةٍ قد اقدر على احتمالها، ولا طرده لها مان تصرفًا لائقًا للقيام به.

لم يسعفني حينها سوى البُكاء والنّحيب في لحظات ضعفي تلك، تخيّلت فورًا مكاني امرأة غيري تحضّر له طعامه المفضّل الذي لم أقوَ على تحضيره له منذ عشش ذاك المرض اللعين في خلاياي، وتجهّز له القهوة صباحًا وتوقظه ليشربها على صوت فيروز، صوت فيروزنا. هذا ما

يتوجّب عليّ فعله أنا، لا امرأة غيري. هل ستاتي غيري لتضع له وردة حمراء مع فنجان قهوته كما يفعل لي هو الآن؟ يا لي من زوجةٍ عاقة مقصّرة...جدّته محقّة فعلًا، يجب عليه أن يتزوج. ليس قراراً سهل الاتخاذ من قبل امرأة، ولكن ما ذنب شبابه ان يفنى معي...مع جثةٍ متحركة تنتظر من يرميها في حفرة ويسدل عليها التراب لترتاح، عليّ أن أساعد جدته بإقناعه..هذا أقل ما يمكنني فعله لأرد له وقوفه بالقرب مني في محنتي التي لن تنتهي إلا بالموت.

لكن...

لكن ما ذنبي أنا؟!

ماذنب شبابي الذي يفنى ببطءٍ أمام ناظري؟

أهكذا يعاقب المرء على مرض ليس بيده بل من مشيئة ربّه؟

لماذا أحاسب بهذه الطّريقة؟

اعلم حق اليقين بأنه ظلم معي، لكن الدنية ظلمتني قبله. لماذا علي الموت مبكراً وترك أحبتي؟ لماذا علي تحمل أطراف مختلفة من الظلم والعذاب بالإضافة للمرض الذي تعدى على حياتي؟

سيبقى سؤالي هذا يطرح نفسه...ما ذنبي أنا؟

ما ذنبي...

كان رفيق يستند إلى الباب الذي أغلقه في وجه جدّته لأوّل مرّة...جدّته التي فتحت له ابواب قلبها ومنزلها بعد وفاة والدته كانت أمّه بل أغلى، كان كالطّفل يبكي بحرقةٍ لا أدري إن كان يبكي على تصرفه الطائش أم يبكيني أم يبكي نفسه، ربما كان خليطاً من أسباب فلا يحسد على موقفه الذي وجد نفسه فيه بلا أي إنذار.

مسح دموعه التي يعتقد أنني لم أراها، لكن في الحقيقة كنت أبصرها وأتألّم في داخلي على حاله الذي وصل إليه، على عبراته التي تساقطت من ضفاف عينيه بسببي...هل يا ترى هذا ذنبي أم ذنب جدّته؟ من أبكاك يا رفيق؟ أنا...أم جدتك؟

تقدّم مني وأزال دموعي المتبقيّة على وجنتيّ.

سامحني رفيق، سامحني على الموقف الذي كنت فيه أمام جدّتي، واضطرارِكَ لطردها خارج منزلنا.

لا تتأسّفي علي شيءٍ لستِ بمذنبةٍ فيه.

لكنّها محقّة.

محقّة!!! بماذا؟

عليكَ أن تتزوّج وإن كان الأمر يكسرني.

أتزوّج!!!

نعم.

بيسان..أنتِ عاقلة بما تقولين؟

بكامل قواي العقليّة أحدّثكَ.

أأنتِ مجنونة؟ أتزوّج عليكِ؟ لا لا أتخيّل!!.

من أجلكَ يارَفيق، لا تظلم نفسك معي.

اسمعي يا بيسان، عندما اخترتكِ وتقدّمت لخطبتكِ لم أظلم نفسي معكِ حينها فأنا اخترتكِ مثلكِ مثل كلّ الفتيات سالمة مسلّمة من أيّة ضرّ. ومن ثم..من هذه الأنثى العاقلة التي تدعين أنك إياها؟ لا انثى في كل المجرة ترضى لزوجها أن ينكح غيرها مهما كانت الأسباب. فكري بعقلكِ وليس قلبك يا بيسان. لن أتركك، ولن أجيء بامرأة غيرك لتشاركك بي.

لا علاقة لك بمرضٍ أصابك دون استئذان هذه مشيئة الله لا يد لنا ولا رأي بها، هو يعلم ما الخير وراء هذا الابتلاء، فلا بلاء إلا لحكمة.

لماذا أنتِ مصرّة أن تتحملي كل هذه المسؤوليات لا أدري؟!!!!.

لا تفكري بالأمر، فلتعتني بنفسك وصحتك فقط ودعي هذا الأمر وجدتي لي. أنا سأتكفل بالأمر وأعدك، لا بل سأقسم لك بأنني لن أدع أحداً يعكر صفو حياتنا، مهما ملأها من هموم ومهما تكدرت بالمشاكل والمحن.

إذن..لن تستمع لجدتك وتتزوج كما تريد منك؟

بيسان إعقلي، جدّتي امرأة مسّنة تعتقد أن مجتمعنا كمجتمعهم يتزوج الرجل مرّة واثنتان وثلاث لا تهتمّي لكلامها.

ومتى سنذهب لنصلح ما فعلته أنتَ أيّها الشقي؟

نذهب؟ نذهب نحن معًا؟

أين المشكلة؟

لا مشكلة في الأمر، توقّعت لن تتطلبي مني الذهاب معي بسبب غضبكِ منها.

لم أغضب منها، لكن علينا طلب السماح منها وإن كنّا على حقّ تبقى هي البركة لنا في الحياة الدنيا.

يالك من طيبة القلب، لن أجد قلباً حنوناً عطوفاً كقلبكِ مهما حييت.

قبّل رفيق يدي وسندني لنتجه إلى غرفة النوم معلنين نهاية يومنا الصاخب ذاك بنومٍ عميقٍ مليءٍ بالدموع الحارة.

استسلمت إلى الفِراش والوسادة أشغل تفكيري في كلّ ماحدث معنا اليوم حتى راودني النوم الذي لن يطول إلا قليلًا، جاء إلى بالي سؤال جعلني أفتح عينيّ وأحدقّ في ظلام الغرفة:

هي سيفعلها؟

هل سيتزوّج؟

رفيق، هل ستفعلها وتتزوّج؟

لكن رفيق لم يكن يسمعني قد غطّ في نومٍ عميق يحلم ربما بزوجته الثانية، رغم أنه أكّد لي بأن ليس له غاية في ذلك أبدًا.

وما الذي يجعلني أثق به هكذا؟

رغم كل ثقتي العمياء به إلا أن الغيرة والهرمونات الأنثوية اجتاحتني بلا اي استئذانٍ تدق نواقيس الخطر في عقلي.

حاولت أن لا أدع هذه المخاوف تشغلني وتسيطر علي فهو يحبّني وانا اعلم هذا علم اليقين.

هل يصلح أن أثق به إلى كلّ هذا الحد؟ من أين أتت ثقتي هذه من الأساس؟

لماذا لا؟ رجلٌ طرد جدّته ترغمه على الزواج من أخرى و لن يستمع لكلامها، يجب علي ان اثق به لهذا الحد. أم انني مخطئة؟

استمرت هذه الهواجس بمطاردتي والتخبط في أرجاء عقلي إلى أن غلبني النعاس ودخلت في سباتٍ عميق.

رأيته في حلمي..

يرتدي بذلته السوداء مع ربطة عنقه الحمراء المفضلة ذات الملابس التي ارتادها يوم زفافنا. كان سعيداً، لم أره يبتسم بذلك الإشراق منذ مرضت لكنه لا ينظر إلي، ينظر إلى الباب الكبير حيث تدخل فتاة شابة بثوبها الأبيض الناصع، تسدل على وجهها طرحة بيضاء أبهرني تألقها. لم تكن أنا...لم أكن أنا من ينظر إليها! كان شبحي..

يقف خلف رفيق يرقب وصول عروسه الجديدة إلى بين يديه. يمسك بها، يأخذها من يدي والدها برقةٍ ليكشف بيديه فرحاً عن وجهها الملائكي. يبكي فرحًا...أبكي ألماً وحرقةً، توقظني يده الدافئة ماسحًا بها دموعًا قد انسلت خلال نومي على الوسادة فبللتها لآخرها نظرت إليه بحزن..بغضبٍ وحسرةٍ. أبعدت يده عن وجهي ونهضت عن السرير مبتعدةً عنه ارتديت ملابسي وخرجت من المنزل مسرعةً كان يلحق بي، يركض بملابس نومه التي لم يتسنى له الوقت لتبديلها محاولاً الإمساك بي. تمكن من التقاف يدي ولكنني تخلصت من يده بقوّةٍ واستقليت أول سيارة أجرة رأيتها.

ارتميت أبكي في حضنها كما كنت أبكي عندما كنت طفلة لم أبكِ مثل هذه الحرقة منذ وفاة والدي، أشهق وتنزف الدموع من عينيّ، قلب أمّي أصبح ضعيفًا هشًّا عندما رأتني أنوح أمامها بهذا الشكل، بكت هي أيضًا دون أن تعلم السبب وراء بكائي المرير وأخذتني إلى المكان الذي اعتدت أن أحكي لها فيه عن كل شيء منذ صغري، كنت أبكي جوعًا...ألمًا...مللًا واليوم أبكي حرقةً لكن كل ما أحتاجه هو حضن أمّي الذي يطفئ نيراني المشتعلة، حضنها الذي يداوي جراح القلب.

حاولَت التّماسك قليلًا لتفهم مني ما الذي حصل، وبالفعل فهمت الذي يبكيني:

رفيق هو السّبب صحيح؟

رددت والبكاء لا زال يغلبني:

نعم، هو.

فعل لكِ شيء يبكيكِ هكذا؟

هو لم يفعل، جدّته التي فعلت.

ماذا فعلت؟

تريده أن بتزوّج.

يتزوّج!!! ما السبب؟

بنظرها إنني امرأة ناقصة عاقة لزوجها ومقصّرة في حقّه، وهو يستحقّ امرأة تقوم بواجباتها نحوَه وتنجب له طفلًا.

على ما أعلم أنكِ اختياره الأوّل والوحيد يا بنيّتي، ما الذي غيّره فجأة؟

أرتشف بكائي كالقهوة على مصب خدي، وهي تختلط مع بعض الألغاز اللغوية من فمي:

هو لم يتغيّر أبدًا بل اعترض على الفكرة وجزم الأمر بعدم قبوله وأثبت لها أنّه لا يريد مكاني امرأة ثانية.

وأين العائق في الأمر الذي تبكين لأجله؟

أنا العائق...نظراتها كانت تشعرني بأنني مشكلة في حياته وأنا السبب في حرمانه الأبوّة.

يا بنيّتي... هو اختاركِ وثمّ قرّر الزواج منكِ ولم يمنعه عن ذلك مرضكِ ولا غيره، بل تقبّلك بكافّة أحوالكِ على الرّحب والسّعة. لا وبل داراكِ وبقي بجانبك طوال فترة مرضك، حتى أنه راقبك عن كثبٍ أثناء غيبوبتك دون أن يخبرني ويقلقني. رفيق شاب طيب وخلوق، لن يتخلى عنك بهذه الطريق. كوني متأكدة.

زدت من حدة بكائي..

لكنه فعلها! لقد تزوج يا أمي تزوج.

ما الذي تقولينه يابيسان!

نعم نعم لقد خانني وكان فرحاً بذلك، لقد رأيته في حلمي متزوجاً من أخرى والفرحة تعلو وجهه.

لم تستطع والدتي كبح ضحكتها التي أطلقتها بصوتٍ عالٍ.

لقد أرعبتني بيسان. هل تبكين بسبب حلم! حلم يابيسان أرقك وجعلك تهربين من زوجك منذ الصباح الباكر؟ يا لأفكارك الطفولية يا صغيرتي، إن الأحلام يا حلوتي ماهي إلا انعكاسٌ لأفكارنا التي تشغل عقلنا الباطن فتتجسد على هيئة أحلامٍ مرّة أو حلوة. والآن امسحي دموعك هذه و دعينا نذهب سوية إلى زوجك ونعتذر منه لما بدر منك هذا الصباح.

عدت مع والدتي إلى منزلي ولكن لن يكن رفيق هناك. ساعدتني والدتي بترتيب المنزل وصنع بعض الطعام للغداء. دخل رفيق من الباب وانصدم لوجودنا، كان يحمل معه كيسًا بلاستيكيًّا فيه بعض الاوراق، لم ألقِ بالًا لها بل أسرعت إليه وضممته بقوةٍ أبكي وأعتذر منه على ما بدر

مني سابقاً في الصباح، طبطب علي وأخبرني بأنه غير منزعج البتة وجلسنا ثلاثتنا نتناول طعام الغداء.

نظرت إليه بعينيّ المتورّمة من شدة الدموع التي أذرفت اليوم، كان يبدو عليه شيئًا من الخوف الممزوج بالغضب. سألته مستفسرة عن عُقدة حاجبيه والتّكشيرة في محياه التي لم أعتاد رؤيتها من قبل، خشيت بأنه مازال غاضبًا مني، خشيت قطيعته لكنّه لم يخبرني سِوى أنه ذهب لإحضار نتيجة التّحاليل التي أجريتها قبل البارحة قبيل خروجي من المشفى.

هل النتيجة مُحزنة للغاية؟ هل سأموت غداً يارفيق؟

لا أدري.

لا تدري؟ أهذا جوابٌ أم لعبة ما؟ أين تنصرف هذه اللّاأدري؟

لديكِ، أو ربّما لديّ لا أعلم...أنتِ من تحدّدين إن كانت مُحزنة أم لا، فهي بالنسبة لي تعيسة جدًّاً أكثر مما تتصورين.

تشنجت معدتي ولم أستطع تناول المزيد من الطعام. أمسكت والدتي بيدي محاولة تهدئتي ووجهت الكلام لرفيق،

رفيق..ما هي النتائج؟ لم تتكلم بالألغاز هنا يارفيق. أنت تعلم بأن بيسان لا تحتمل اللف والدوران في وضعها هذا لذلك توق..

لقد امتد السرطان إلى الرئتين.

قال رفيق كلماته وتبعها صمت مدقع.

لم أعلم ماعلي قوله..

لقد توقعت الموت نعم، لكن لم أتوقع أن يزيد عذابي عذاباً قبل موتي المحتم.

هل سمعته جيداً؟ لا لا، هذا مستحيل، كيف له ان يمتد إلى الرئتين؟ أعلم بأنه خبيث ولكن ألهذه الدرجة وصل خبثه؟ ألم يكتفي بقضم وجهي وسرقته لمعالم جماله كلها؟ سيخنقني أيضاً!!

هذا كثير يا الله..هذا كثير علي.

انسحبت من الغرفة ببطءٍ بدون أي تعبيرٍ بدون أي كلمةٍ. لم تصدر أصوات صراخٍ وعويل، لم تذرف الدموع. جفت كل الدموع والموت بات يطرق الباب.

ألهذه الدرجة يكرهوننا؟

يخاطرون بأرواحنا ويقدموا بنا إلى العلاج الكيميائي؟

بالتأكيد لسنا بمكانةٍ سفلى منخفضة لديهم، مثلي كمثل أولئكَ الذين ينتظرون موعد جلسة الغد ومنهم من فتح الباب ليدخل عليه الموت ويسرقه إلى عالم يخلد فيه راقدًا مرتاحًا من عذاب الدّنيا. لربما دوري غداً، على ذلك السرير الأبيض أرقد متجرعةً السم برضاتي ليلتقفني ملك الموت الذي يقف عند السرير المجاور لي ليأخذ معه مرافقاً أخر. أأبكي؟ أألطم؟ لا أدري ماعلي فعله، لمَ لمْ يأتوا لمواساتي؟ هل ينتظرون مني مواساتهم لفقدي؟ آهٍ ياقلبي...آهٍ يا الله...أشعر بأن قلبي يتمزق ألماً يعتصر إلى أخره. لم يعد يتسع لجرعةٍ أخرى.

يبدو أن أيّامي المتبقيّة لن تسير على ما يرام بل ستكون عبارة عن كتلة همّ ستزول عندما أغمض عينيّ وأذهب لزيارة أبي وإقامتي بجانبه لنأنس باللّيالي الخوالي. لن تمر بسلام، فستعود الشمطاء لتنغص عيشتي المنغصة بإلحاحها وكيدها. لن تمر بسلامٍ مرور الكرام، ستدهس ما تبقى من جسدي، من همّتي ورونق روحي. ستستنزفني الأيام القادمة إلى أخر رمق، ومازال أحدٌ لم يأتِ لمواساتي.

لم أدرِ متى استسلمت للنوم واستلقيت على السرير، لكن الذي أدركه هو أنّني استيقظت صباحًا ورأيت نفسي بلاوعي جالسة أمام مكتب الطبيب في المشفى أستمع إليه دون تركيز و بذهنٍ مشتّت عن دورة العلاج الجديدة التي علي اتباعها منذ الآن لإبطاء المرض. كان رفيق يجلس على الكرسيّ أمامي شاردًا ونظره مثبت على الأرض بين قدميه، كنت تائهة في الحالة التي أقبلت عليها وغافلة في ردّة فعل زوجي...ذلك البطل البريء الذي أخذ دور الضّحية في روايةٍ لمُحارِبة الفَناء. دقيقة...هل قال إبطاء المرض؟! نظرت إليه برعبٍ وكأن فكرةً لطالما حاولت ضحدها وإيقافها تمردت وطفت إلى السطح لتثبت وجودها الحتمي.

ما الذي تقصده بإبطاء المرض أيها الطبيب!

نظر الطبيب إلي نظرة ملؤها الشفقة ورفيق مازال مثبتاً نظره إلى الأرض.

أسف يا آنسة بيسان.

لماذا تعتذر؟ لماذا تعتذر!! هل تسمي نفسك طبيبًا! ألا يتوجب على الطبيب أن ينقذ أرواح الناس! تبطئ المرض!! ما هذه السخرية التي تتفوه بها هنا لا شيء سيبطئه، لا شيء سيوقفه وكلكم كنتم على دراية بالأمر ولكنكم نمقتموه بالجرعات وجلسات الإشعاع و و و. كفاكم سخرية مني، كفاكم عبثًا بجسدي. لن أتبع دورة العلاج تلك. فموتي محتم، والموت حق.

استدرت مسرعةً للخروج من غرفة الطبيب ولكن توازني اختل وسقطت أرضًا مغشيًا علي بعد نوبة الغضب أو الصرع كما وددتم تسميتها تلك.

عندما استيقظت كنت متعبة جدًّا وكأنني عدت من حربٍ لا أعلم ماهي نهايتها أو لا زلت أحارب فيها بلا وعيٍ مني، تلفتُّ حولي أبحث عن رفيق متيقّنة أن أجده بجانبي كما العادة لكنه خذلني، لم اجدت بقربي ممسكاً بيدي بحنو. حتى والدتي، لم أجدها تمسك بقرآنها قربي تتلو آياته علها تشفيني. لم أجد سندي وقوتي قربي. أيقنت حينها كم أن الإنسان وحيد. كلما اقترب من موته بات أكثر وحدة. أيحاولون الابتعاد كي يعتادوا غيابي؟ أم أنهم يهيئونني لموتي البارد الوحيد؟ لا أدري...كل ما أعلمه أن قلبي فطر لعدم وجودهم، لعدم مواساتهم لي.

لم أستطع إطلاق صوتٍ أو الصّراخ والنّداء آملة علّ أحد المارّة سيردّ ندائي ويأتي لمساعدتي وتقديم بعض المواساة لي، مواساةٌ كنت بأشد الحاجة لها. بقيت وحيدة في غرفة من أربعة جدران يتوسّط سقفها مصباح يضيء عتمتها القاتلة. لم لا ينطفئ؟ لمَ لمْ أنطفئ إلى الآن؟ ما الذي ينتظرني في طريق موتي هذا بعد.

بقيت أنتظر وأنتظر وأنتظر لساعاتٍ علّ رفيق يأتي أو الطبيب يحضر لاطمئنان على حالي أو أمي تفتح الباب وتركض نحوي بلهفتها المعتادة لتغرقني بكم القبلات والعبرات، لكن يبدو أن جميعهم قد سئموا من البقاء بجانبي. سئموا عبارات المواساة والشفقة البالية، سئموا مني ومن عجزي. لا ألومهم، فأنا سئمت مني.

الحقّ معهم، ماذا ينفعهم البقاء والانتظار بجانب مريضة اقترب انتهاء عمرها؟! مزيد من الألم والحزن ليتجرعوه فقط. لا أمل يلوح لي في الأرجاء. فلمَ الانتظار لي؟ يمكنهم القدوم لدفني حين موتي ويرموا بعض الدموع على قبري ليسقوني بها ألمًا بعد الممات.

شردت قليلًا بينما أحاول جاهدة خلق أي شيءٍ ينسيني آلامي ومرضي، ينسيني الناس وعدم اهتمامهم بي. فخطرت لي خاطرة تمنيت لو أنني دوّنتها على قصاصة ورقةٍ لأحتفظ بها:

تبًا لكَ أيها السرطان اللعين

تبًا لخبثك اللامتناهي

يا سالبًا أجمل سنين العمر

يا مستنزفًا شبابي

لم ظهرت وقطفت من حديقتي المزهرة أحلى ورود السّنينِ؟

ألم يكن بإمكانك الاكتفاء بالبعض فقط؟

فالأزهار قطفتها والحديقة أحرقت

تبًا لك أيها المخرب اللعين.

غطيت وجهي بيدي وبكيت، لم أبكِ كعادتي بحرقة. بكيت قليلاً، فحتى حالي ما عادت تبكيني. ماتت روحي ولا محال لإحيائها بعد الآن. شيعتها إلى مأواها الأخير ببضع دموع بلا نحيب. شيعتها إلى آخرةٍ أنا بلقياها قريبة.

غلبني النعاس مرة أخرى، استيقظت عند سماع الطبيب ينادي باسمي.

أنسة بيسان، استيقظي يجب أن نتحدث.

تفضل أيها الطبيب كلي أذان صاغية، أسفة لم أشعر بشيءٍ نمت دون أن أعلم، يبدو ان الليل لم يسدل ستاره بعد.

بلى، لقد حلّ الليل وأشرقت شمس اليوم التالي. لقد قارب موعد الغروب.

شعرت ببعض الغرابة، فنومي عادة خفيف وأشعر بأي همسٍ أو حركةٍ تحصل من حولي. هه هذا عندما كنت بكامل قوتي، لا عندما بتُ عجوزاً خرقاء لا حول لي ولا قوّة.

تبًا..أنا أموت.

نظرت إلى الطبيب ليكمل حديثه الذي قطعته له البارحة. أخبرني باننا سنزيد من كمّ الحرعات وتركيزها، لذلك سأضطر معظم الأحيان للمبيت في المشفى. قال لي ما كنت لا أريد سماعه منه بشكل مباشرٍ..

"الأعمار بيد الله"

نعم..فما نحن إلا عبيد الله وأجسادنا أمانة كان الله قد أتمننا عليها ليستردها والروح متى شاء سبحانه. لا اعتراض على حكم الله وتدبيره فهو اعلم بمصالحنا مهما بلغنا من الحكمة والتنوير.

أغمضت عيناي متقبلةً حقيقتي المرّة. ليس باليد شيء. علينا متابعة النضال، هذا ما يمكننا فعله الآن. ربّت الطبيب على يدي بحنوٍ ثم خرج ليقابل جثث على قيد الحياة غيري.

استوقفته قليلًا قبل خروجه من الباب لأساله عن رفيق

أيها الطبيب أتعلم أين رفيق؟

لمَ لمْ يأتِ بعد؟

هل زارني عندما كنت نائمة أم لا؟ يا إلهي لو أنه أتى أثناء نومي، ليتني رأيته.

للأسف بيسان رفيق لم أراه حتى الآن.

كأنّ كأس ماء بارد انسكب عليّ لدى قول الطبيب لي هذا الكلام، رفيق..رفيق دربي لم يأتِ ويزرني منذ البارحة!.

ماذا عن أمّي؟

والدتكِ على ما أعتقد لم تعلم بشيء وحاولت الوصول إليها لكن لم أجد من وسيلة تصلني بها.

من فضلكَ اتصل بزوجي واطلب منه المجيء حالًا.

اتّصل الطبيب مرة واثنتين وثلاث وليس من مجيبٍ سوى تلك التي لا أعلم ما اسمها ربّما "سكرتارية الاتصالات" تقول لنا إن الهاتف مغلق أو لا يوجد عليه شبكة.

ذهلت...ما الذي حدث بين اليوم و البارحة...بين ليلةٍ وضحاها.

يوم أمس كان معي بجانبي يحارب اعز الناس على قلبه من أجلي واليوم أنا بمُفردي أحارب المرض والشقاء والبعد بمفردي، لأوّل مرّة يتركني أفتقده وأفتقد لمساته الحنونة وأدعيته الآمنة والطّاقة الإيجابية التي تلمع في عيونه ويبثها فيّ بلمسة أو كلمة. افتقد الحبّ الذي ينبع من ثنايا قلبه الرقيق بلا مقابل ينتظره مني، أيريد الآن مقابل؟

ربّما ذهب إلى جدّته كي تصفح عنه ونسي نفسه نائمًا عندها.

هل تصرّفه معي يقبل الأعذار؟

لماذا أحاول تبرئته من الأمر؟

لماذا أضع أعذارًا لغيابه عنّي؟

ربّما حبّي له يغلب الحقد عليه!!!

لكن هل يعقل أنّه لم يخبر أمّي!!!

يا الله ماذا حصل معه حتّى تأخر عليّ، يا الله كُن معه إن كان في شدّة ويسّر له أمره إن كان في عسرٍ، و كما يقولون "الغائب سيأتي حاملًا عذره معه".

لا أعلم..تعبت التفكير بكل شيء، تعبت العيش هكذا لم لا تأخذني لعندك يا الله، فأنت أرحم من هذه الدنيا.

حلّ المساء وإذ بطرقات خفيفة تداعب الباب فتح ودخل رفيق يختبئ وراء باقة زاهية من التّوليب الأصفر، كتب لي رسالة وثبّتها على خشبة وحزمها بين الورد كُتب عليها:

"آسف على التّأخير، لكنّك لم تغيبي عن بالي ولا لحظة واحدة".

حينما قرأتها هدأت قليلًا وعلمت أنه كان بغير قاصد على التأخير وإنما حصل شيء جعله يتأخر إلى الآن. لم أسأله أو أعاتبه كما يفعلن باقي الزوجات عند تقصير أزواجهم. فأنا واثقة بحبه لي واهتمامه بي. كما قلت "حبي له يضع له عذرًا لتصرف مجهولٍ بدر منه." جلس على الكرسي بالقرب مني منهمكاً طوال الوقت عنّي بتطبيق "الماسنجر" ولم يعطني من وقته إلا القليل، سألته إن كان هناك حادثة حصلت قال لي نافياً و بأنّه مجرّد ضغط عملٍ جعله يتأخر للقدوم لزيارة زوجته المريضة. لا بأس، لن أضغط عليه.

رفيق انظر إليّ ولتترك الهاتف قليلاً. دعنا نتحدث.

أجابني بغضبٍ لم أعهده عليه من قبل.

ما الذي سنتحدث عنه! ألا يكفي أنني أتيت للاطمئنان عليكِ؟ ما الذي تريدين التحدث به؟

صفعة أخرى قدمتها الحياة لي، جرح أخر فتحته وصبّت الملح عليه. كلماته قتلتني، كوتني من الداخل. ولكن ولسبب ما لم أبدي أي تعبير أو حركة، ربما تغيرت ملامح وجهي عند صفعي بهذه الكلمات ولكن تشوه معالمه وتقاسيمه حالت دون أن تظهر. تابع رفيق العمل على هاتفه دون أن يلقي أي سهمٍ أخر، دون أن يعتذر.

مضت سهرتنا هكذا...صامتة دون أن يبادر أحد منّا ويتفوّه بكلمة أو حرفٍ واحدٍ حتى الهواء بتنا نتنفسه بصمتٍ دون إصدار صوت شهيق وزفير إلى أن أغلق النوم عينيّ وتركته منهمكًا بهاتفه دون أن أسأله عمّا يشغله عنّي أو مع من يتحدّث كما تظن أغلب الزوجات بأنه يكلّم غيرَها فتبدأ بخيالاتها وتصوّراتها التي تسمم العقل بلا أي دليل قاطعٍ على الخيانة. يا لقلة عقل النساء، من السهل عليهن بناء الشكوك اتجاه أزواجهن عند اول مطبٍ ومنعطفٍ في حياتهم الزوجية. ألا يعلمن بأن الخيانة ليست بأمر سهل؟ حتى على الرجال. لا يمكن لرجل اختارك بكامل وعيه وقواه العقلية بأن ينسى جلّ أيامكم سوية. لا يمكنه نسيان الأيام المفرحة والمحزنة التي مررتم بها سوية هكذا بلمح البصر. إن الزواج رابطة مقدسة، مبنية على العديد من الأسس وأهمها الثقة. نعم..أنا أثق برفيق.

استيقظت صباحًا على أمل أن أجده نائمًا على الكرسيّ بجانبي كما المرّة الماضية ينتظر استيقاظي بفارغ الصبر. لكنّه تسبّب بجرحٍ آخر قبل أن يلتئم جرح البارحة، يا لكَ من مهملٍ. لو أدري فقط ما الذي يشغلكَ يارفيق...ما الذي يلهيكَ عنّي ويغيّر حالكَ ويقلبه رأسًا على عقب، لو أدري فقط ما الذي وضعته أولويةً عوضًا عني. ظني بك دائمًا حسن، وسيبقى حسن إلى الأبد، مسحت وجهي طاردةً كل الافكار من رأسي.

اعتدلت في جلوسي وأخذت أترقّب مجيئه لنذهب معًا إلى بيتنا...إلى عشّ الزّوجية الذي بنيناه قشّة فوق قشّة معاً بلا كلل ولا ملل.

ها قد جاء وأخيرًا بعد انتظارٍ دام ساعتين. دخل إليّ كسجّان أُمِر بإخراج سجينه الذي يتلذذ بتعذيبه من الزنزانة، انتشلني من السرير وأوصلني إلى السيارة دون أي كلامٍ وقاد بي إلى المنزل. إلى متى سيستمر هذا الصمت؟ اكتشفت منذ يومين أو ثلاثة ،لا أدري فلم أعد أحصي

الأيام، إن المرض قد امتد إلى رئتي ومنذ ذاك الحين عم الصمت الأرجاء. لم يحدثني هو أو أمي بالأمر. هذا يقتلني أكثر.

دخلت قبله إلى المنزل وانتظرته على الأريكة في غرفة المعيشة لأستفهم ما يحصل معه لعلّه يعطِيني سرّه ويحفظه عندي، لحق بي إلى الغرفة و رمى معطفه على الكرسيّ وتربّع قبالتي.

سألته عن أمره مرّتين لكنّه ما زال محتفظ بصمته وعازمٌ على ألّا يخبرني ما بهِ.

حان وقت الغداء، ذهب كعادته التي عهدته عليها وأحضر طعاماً جاهزًا. جلسنا على المائدة كشخصين غريبين لا يعرفان بعضهما وكأنهما التقيا للمرة الأولى في محضّ الصّدفة، كأنّني غريبة عنه وهو غريب عنّي. لم أتلفظ بأي كلمة. تناولت طعامي الذي سرى في جسدي كالسم والعلقم مما أنا فيه.

انتهى رفيق من طعامه بسرعة دفعة واحدة وهرع مسرعًا إلى غرفة النوم مندسًّا تحت غطاء السرير وغطّ في النوم لصباح اليوم التالي، اليوم اكتفى بالصمت والنّوم، يا ترى غدًا بماذا سيكتفي؟

هل سيهجرني؟ أم أنه سيتركني ويتخلّى عنّي؟

قهرتني ويبدو أنكَ ستقهرني وتخذلني أكثر من هذا، لن ألومكَ على شيء أنا مصدره. لا داعي لتقول لي ما الذي دفعكَ إلى الكتمان أنا الآن بدأت أتأكد أنني ظلمتكَ معي، لكن الحياة ظلمتني أكثر منكَ...صدّقني. ولكن..أوتعلم؟ لقد اكتفيت من صمتك المميت هذا. فلتصارحني بأي أمرٍ مهما كان مرًّا، فما زلت أنا إنسان، مازال في نبضٌ والنفس يدخل ويخرج مني. لم أمت بعد لتعاملني كما لو أنني غير موجودة، هذا التجاهل يقتل أشد من مصارحتك لي بالخيانة أو الزواج من أخرى... لن أدعك تفلت غدًا من براثني، سأجعلك تخبرني بكل ما يكتنف صدرك مهما كان، سأضع حدًّا لهذه المهزلة التي طالت.

مضى اللّيل تأتي الأفكار وتذهب لتأتي غيرها مزاحمةً إيّاي وأطاردها حتى طلوع فجر يومٍ آخر، أيقظته كي نتناول قهوتنا اللذيذة ونطرب لصوت فيروز العذب سويةً.

رفض شرب القهوة معي رفضًا قاطعًا، أنتَ يارفيق!!! أأنت ذاك الرجل الذي اعتاد أن يحضر لي قهوة الصباح ويوقظني ليشربها معي قبل أن يتجه لعمله؟ أهذا أنت! أهذا رفيق دربي ذاته؟

لو سمحتِي ذلك الوقت غير هذا الوقت.

غير هذا الوقت! وما باله هذا الوقت؟ ما مشكلته؟

ما بهِ حتى يمنعكَ من أن تشاركني القهوة اليوم؟

لا مشكلة لك مع الوقت يارفيق أنا اعلم هذا، مشكلتك معي أنا زوجتك المشوهة المريضة.

اعلمي أن من اليوم وصاعِد ستكثر رحلات العمل وتطول لأيّامٍ هذا ما سأقوله فقط.

وأنا سأبقى هُنا وحدي في المنزل؟

بإمكانكِ الاتصال بأمكِ كي تؤنسك أو تأخذكِ إلى بيتها فترةً بينما أعود.

لكنّكَ كنتَ أنتَ من يأخذني إلى أمّي، ولا مرّة سابقة تركتني أذهب معها وحدي ما الذي حصل لك، ما الذي حصل!.

من الآن ستذهبين وحدكِ، يبدو أنك كنتِ معتمدة عليّ بشكل تام منذ زواجنا أليس كذلك؟ ألا حياة لك غيري!!

رفيق ما بك هل جننت! أنتَ زوجي... على من سأتّكل وأستند إن لم يكن أنت؟ أرجوك لا تعاملني بهذا الشكل. لست بقادرة على تحمل المزيد من القهر.

وهل أنا بقادر! أموت قهرًا وألمًا كل يومٍ دون أن تشعري بي، دون أن تعتني بي. زوجك؟ ما الذي تقدمينه لي هذه الأيام لتناديني بزوجك؟!

ارتدى ثيابه وهو ينفث أنفاسًا خانقة، وضع هاتفه في جيبه وهمَّ للخروج قاطعاً حديثنا من منتصفه. ابتعدي عن طريقي يا "زوجتي" لديّ عمل مهم اليوم.

سأدعكَ تذهب لن أحبسكَ هنا معي فأنا لست بسجانةٍ ابقي الناس رغماً عنهم في قفصٍ من ألم، لكنّ العمل ليس أهمّ منّي ومن الكلام الذي أريدكَ أن تسمعه الأن.

أرجو تأجيله حتى أعود مساء اليوم من العمل. لست بقادرٍ على سماع أي كلمةٍ منك الآن.

الأمر لا يقبل التأجيل ولا لحظة فقد قمنا بالتأجيل كثيراً لحد الآن متغاضين عن الأمر متظاهرين بعدم وجوده من الأساس، ركضت بما فيّ من قوّة وأقفلت الباب وخبّأت المفتاح كي لا يستطع الخروج قبل أن أقول ما عندي.

ماذا تفعلين؟! هل جننت!

اجلس لو سمحت دعنا نحتسي بعض القهوة وبعدها اذهب أينما تريد لن أتمسك بك بعدها، هذا وعد.

تغرغرت الدمعة في عيني لدى قولي هذه الكلمات ولكن مسحتها بسرعة لأحافظ على قوتي ورباطة جأشي.

وضعت فنجانًا من القهوة أمامه وجلست مقابلة له وبدأت حديثي دون مقدمات.

أخبرتك منذ قليلٍ بأنني لست بسجانةٍ وأنا أعني ذلك. لا تخبرني بأن شكوكي ليست بمكانها، وأنا أحادثك الآن ليس عن طريق العتاب أو الغيرة لا، أحادثك بهذا الأمر لأنني دقت ذرعًا بتجاهلك لي. ليس من الكبائر أن تخبرني بأنك مللت مني ومن مرضي وعجزي. أعلم كم أنني عالةٌ عليك أكثر من سواك. أعلم كم أنك تجرعت المر والأمر في هذه الأيام القليلة التي أمضيناها معًا. أرجوك لا تقل بأنني لا أحس بك، أنا أعلم حق المعرفة كم عانيت، كم ظلمت معي. فشبابك يضيع ويذبل معي بلا داعٍ. كلانا يعلم حق المعرفة بأنني سأموت، لكن لم نتظاهر بأن هذا لن يحدث؟ نتظاهر بأن الموتَ كذبةً ولن يقترب مني مهما بلغت من المرض. لم نتظاهر بأنك مرتاح معي وتحبني مهما بلغ مني السقم؟ كلانا يعلم بأن لك حقوق يجب أن تقدم لك، كلانا يعلم كم أنك بحاجة لأحد يعتني بك.

فأنت تقدم ولا تتلقى شيئًا هذه الأيام. والله يعلم بأنني أحترق من الداخل بسبب تقصيري اتجاهك ولكن الامر ليس بيدي، لست بقادرةٍ على الحراك وحدي..كيف لي أن أرضيك وأنا بهذه الحال؟

وضعت يدي على فمه عندما همَّ بالرد بعد أن انفرجت أساريره قليلاً كطفلٍ باح بكل مكنوناته دون النطق بكلمة.

دعني أكمل ما عندي يارفيق.

أنا لا أخبرك بهذه الأمور كي أرقق قلبك علي أو أن أبعدك عن فكرة الزواج. لا...أنا أحادثك ها هنا لأجبرك على الزواج، لست بقادرة على تحمل الأمر بعد الآن. لقد اتصلت بوالدتي بوقت سابقٍ وأخبرتها بأنني أود الطلاق منك.

انتفض رفيق وكأنه تلقى قنبلةً وسط وجهه،

الطلاق!! بيسان لا أريد أن أطلقك.

لقد فاتني القطار يارفيق، إن ملك الموت ينتظرني ولن أسحبك معي إلى قبري. سامحني...

وضعت له مفتاح المنزل مع خاتمي الذهبي...مع قلبي على الطاولة ودخلت غرفة النوم ألملم خيباتي وآلامي في حقيبتي لأرحل...إلى الأبد.

كان جالسًا متفاجئًا فيما حدث مندهشًا فيما سيحصل في الأيام المقبلة القريبة، سأتركُ له المنزل وأودّع قلبي معه أيضًا. سأشتاق إلى أيّامنا معًا وأحنّ إلى قهوتكَ ورائحتها ولصوت فيروز العذب معك. فبفراقك ستعتزل فيروز الغناء ولن يعود شادي إلى الديار. نظرت إلى المرآة متحسّرة على حالي، سأعود إلى المنزل الذي كبرت فيه بدلًا من أن يكبروا أطفالنا في منزلنا يارَفيق.

سأفارقكَ ونعود غرباء لم نلتقِ يومًا ولن تجمعنا صدفةٌ ولا ميعاد. لن أكون بيسانتك ولن تكون رفيقي.

هكذا هانت عليكَ العشرة!!.

لم تزوجتني؟ لم كسرت قلباً لربما لم يشأ الله ان يكسره؟ لقد جنيت على نفسي، سقت نفسي إلى الهاوية راضيةً. لو أنني لم أتزوجك لما تألمت بهذا القدر الآن. لكن هذا قدرنا، هذه قسمتنا وأنا راضية بها عل الله يمدني بمدادٍ من الصبر لأكمل ماتبقى من عمري به.

جلست على السّرير أتأمّله قبل أن أغادر، أتأمّل ملامحه جيّدًا وأحفظها عن ظهر قلبٍ كي أذكرها كلّها دون نسيان شيء منها. اخاف نسيانك يا كلّ كلي.

لا أحبّ الوداع ولا أحب أيّ شيءٍ سيختم البدايات الحلوة التي بيننا.

منذ أشهرٍ وقّعنا على عقد القران والآن سوف نمضي على ورقة الطّلاق، ستنتهي علاقتنا بتوقيعات أقلامنا على الحب الذي كان بيننا...على الإلفة والمودّة.

بالرّغم من أنني سأرحل للأبد وأنت ستذهب بعيدًا أتمنى لك أن تبدأ حياة أجمل وأسعد بكثير، فقد آن الأوان لنفترق ونقول وداعًا...لتلوّح يدي ليَدكَ الحنونة، لا أنكر أن رحيلك سيبقى يؤلمني لكن لا يوجد هناك خيارٌ آخر.

بالرّغم من أن قلبي لا يحب أن يقول كلمة "وداعًا" لكنني سأرغمه على قولها بغصّة ستبقى محفورة طوال العمر...هه أيّ عمرٍ هذا الذي أتحدّث عنه، عُمري انتهى وماهذه إلا أيام النّزاع.

ما يقوّيني أن أقول لكَ "إلى اللّقاء" هو أنني متأكدة بأني سألقاكَ يومًا لكن أين؟ وكيف؟ ومتى؟... لا أدري!.

حملت حقيبة خيبتي المليئة بالآلام أشدّها بعناءٍ، ركض نحوي ليساعدني بحملها.

دعيني أساعدكِ في حمل الحقيبة عنكِ.

لا بأس، سأحملها بنفسي فما عدت عالة عليك الآن، لست مضطراً لمساعدتي.

إذًا سأخرج وأوقف لكِ سيّارة أجرة.

لا، لا تعذّب نفسكَ سأستقلّ أوّل سيارة أجرة ألمحها في طريقي.

بيسان..

رفيق...

نعم؟

أنا ذاهبة الآن.

فلتبقي..

لم يعد لي مكان هنا، في منزلك..في قلبك..بتُ سرطاناً في حياتك فلا تدعوني للبقاء.

يصعب علي فراقكِ.

لا تقلق، ستعتاد الأمر.

وداعاً رفيق..فلا لقاء بعد الآن.

بأمان الله

بهذه السهولة؟ بهذه السهولة تنطق بها؟! لكن ما أودّ قوله لكَ ليس هذا بل أنني ذاهبة الآن وأنت ستذهب أيضًا وتترك فيّ خلفك الكثير من ذكرياتكَ الجميلة التي كانت تجمعنا.

الآن سأقول لكَ فرصةً سعيدةً قبل أن أنوي الرّحيل.

بيسان!!! أنا آسف.

لا تعتذر ولا تبرّر شيء، أنا التي هي آسفة لكَ، وداعًا.

مع السّلامة.

خرجت من المنزل وهو ظلّ يتأملني عن بعد كيف أمشي وأقف لأرتاح قليلًا بعد بضع خطوات، كنت أنظر له بطرف عيني وأبكي دموعًا غير مرئية لا يراها أحد.

أغلقت الباب بعد أن توارت بيسان عن أنظاري. اسندت ظهري إلى الباب وسقطت أرضًا. لا اعلم ماهية مشاعري. هل علي الفرح بما حصل؟ أم الحزن على فراق غاليتي بيسان؟ هل هذا لصالحي؟ تبًا..فقدت إنسانيتي بأخر خبرٍ عن تكور مرضها. فقدت ضميري الحي الذي لطالما حادثتني عن حبها وإعجابها به. فقدت ما تبقى مني من روحٍ نابضة. بت رجلاً، فقط رجلاً. أسعى لمصلحتي وشهواتي. أركض من فتاةٍ إلى أخرى علّهن يرضين غريزتي الذكورية. أنا

الخائن في هذه القصة، أنا الملام. ألم أستطع انتظار موتها فقط؟ لم قمتُ بجرح أنوثتها وكبريائها، أما كان المرض يكفيها؟ دخلت بدوامةٍ لا متناهيةٍ من الأسئلة التي أصابتني بالدوران. تقززت من نفسي تارةً، لمتها هي تارةً أخرى. وفي بعض الأحيان وقفت بصف نفسي لفقداني حقوقي. لا أحد ملام هنا، لا أحد ظلم. كلنا ملامين...كلنا مظلومين و القدر هو الملام الوحيد.

خنقتني العبرة فتحوّلت إلى دموع تنهمر كالسّيول وتنساب من عيناي بلا استئذان. لقد تسرّعت وذهبت وأخذت معها بسمتي، يا لَي من أحمقٍ! كيف لم أحافظ عليها من الخدش فقد شوّهتها الجروح الداخلية قبل ندبات المرض الخارجية، اليوم عرفت كم هو شاقٌّ الفراق الأبديّ لكن عليّ أن أتدرّب على النسيان كي أستطيع العيش من بعدها،

ماكنت أفكّر في فراقها لو لدقيقة، لم أتوقع تركها لي البتة.

لا ينفع الندم والغضب الآن و لا الكلام غير المنطقي أبدًا، فكلّ ما كسرته لن ينفع إصلاحه بعد ما أصبح فتاتًا وهشيماً تذره الرياح.

حلّ المساء بظلامه الدّامس، بدأت أخاف البقاء وحدي في المنزل. هممت لتحضير العشاء وبعدما انتهيت جلست بمفردي على المائدة لم يكن كرسيّ بيسان أمامي وهي جالسةٌ عليه، نظرت إلى الطاولة رأيت كأساً واحداً للشاي وهو لي، عادةً كنت أضع كأسان واليوم قسي علي القدر وجعلني وحيدًا. لم أتخيل قدوم هذا اليوم أبداً، ولا أن تكون المبادرة هي في فراقنا. كسرت قلبي..

غبي..

أنت تستحق أكثر من ذلك بسبب أساك لها في الآونة الأخيرة. لا ذنب لها في ما يحصل، لا ذنب لها في مرضها وعجزها، هي كتلة من الحب والطيبة، مجموعة من خلايا اللطافة واللين، لقد ظلمت نفسي قبل أن أظلمها. فقد أوديت بنفسي إلى جحيم الوحدة والفراق بيدي.

من الصباح سأذهب للعيش عند جدّتي من جديد، فأنا لا أقوى على الوحدة، سأعود للعزوبيّة وأتركَ الزواج لمن هم أهلًا له.

كم من محزنٍ أنني التقيتها صدفة في زحام العمر ونسجنا معًا أجمل حكاية حب نعيش تفاصيلها وطقوسها ونحلم غدًا بحياةٍ أفضل ثمّ تنتهي الحكاية بمأساة غير متوقّعة، فتحتِ لي مدن أحلامها وجعلنا بيتنا قصرًا من الخيال وفي نهاية المطاف انهدم هذا القصر على رأسنا. كانت ذكرياتنا كلها سعيدة ولكن باتت مؤلمة الآن لدى مراجعتي لها ذكرى وراء ذكرى، باتت تؤرقني وتطعنني بسكاكين الندم والقهر.

لم تكن نفسي مُقبلة على الطعام تركته على حاله كما هو واندسست في الفراش واغمضت عينيّ علّني أنام. علَّ ذكراها الحلوة المرة تبتعد عني لأرقد في راحة بضع ثوان.

ولكن ماذا أفعل إذا أغمضت عينيّ فأراكِ أمامي؟

وإن نظرت إلى المرآة أراكِ في؟

وإن قرأت اسمكِ في هاتفي أراكِ؟

وإن نظرت إلى سقف غرفتي رسمت وجهكِ فأراكِ فيه؟

وأحاوركِ في اللّيل كالمجانين؟

وأعود إلى فراشي فأبكيكِ وأبكيني؟

وعندما أعود إلى واقعي لا أراكِ؟

فقد رحلتي دون عودةٍ، دهستي على قلبك ومشاعرك كي لا تستمري بتجرّع ذلّي غير المتعمد لك.

إلى متى سيبقى الحنين يطرق بابي، وهل سيمضي بي العمر وحدي إلى مأواي الأخير؟

لا أدري كيف نمت وتخلّصت من تلك الهواجس، أتمنى أن تكون عابرة. لا أود ان تزورني مرة أخرى. هل كانت بيسان تعيش مع كل هذه الهواجس كل هذا الوقت؟ كفى كفى كفى!!! إلى النوم الآن، إلى النوم...

استيقظت صباح اليوم التالي منطفئًا قد بهتت بعينيّ الحياة من بعد بيسانتي. لم أكن قادراً على النهوض، شعرت بأنني متحطم جسدياً ومعنوياً. جاهدت كي أرفع جسدي عن السرير وهممت بحزم حقائبي وخرجت من المنزل ووضعت لائحة على الباب كتبت عليها:

"لا أحد في الداخل...سنعود يومًا ما وربّما لن نعود"، ثم اتجهت نحو منزل جدّتي. طوال طريقي كنت مرتبكًا هل ستفتح لي الباب أم ستصفعه في وجهي كما فعلت أنا سابقاً؟ لم أحادثها منذ ذلك اليوم حين طردتها من المنزل. تباً..

بدأت أيضًا هذه الوساوس اختراق رأسي تباعاً وبدأ معها صداع لن يهدأ إلا بالمسكّنات.

وقفت أمام منزل جدتي. رائحة العجائز تفوح منه، مهترئًا يحتاج الكثير والكثير من الترميم. لم أره بالسابق بهذا الشكل. لطالما كان كالقصر لي شامخًا كامل الأوصاف بحديقته ذات الأزهار والشجيرات البهية. ما عاد هنالك أزهار، والشجيرات ذبلت. أخذت نفساً عميقاً وطرقت ثلاث طرقات، دوى صدى الضربات الثلاث في كل المنزل دون رد، كررت الطرق مرة واثنتين وثلاث ولكن ما من مجيب. لا تريد أن تفتح لي..حقها.

استدرت للمغادرة وإذ بجدتي تقف خلفي مشدوهةً برؤيتي، عانقتني بحرارةٍ وأدخلتني المنزل.

عندما دخلت استنشقت رائحة الأمان والحنان التي لطالما كنت أشتمّها في صغري عندما أركض وألعب في أرجاء المنزل، أينما جلست في ركن من أركانه أشعر بالطمأنينة والراحة...لا أعلم لم تذكّرت طغولتي الآن، ربّما لأنني لم أكن أحمل همومًا سوى أن أشتري الألعاب وأتذوّق الحلوى اللذيذة. ليتني أعود طفلاً بلا هم ولاغم على قلبه، ليت يمكنني العودة بالوقت وأوقف عجلته في ذاك اليوم في الجامعة لدى رؤيتي لبيسان. ليتنا بقينا هناك، ليتنا لم نتقدم من بعضنا وبقينا عشاقاً هائمين بلذة النظرات واستراق القبلات. ليتها لم تذهب.

أفضيت مكنوناتي على مسامع جدتي وأنا أبكي، أبكي كما لم أبك من قبل. أين أنت يا أمي؟ لم أجلبتني إلى هذه الحياة وتركتني يتيماً بها؟ يتيماً متيماً بمن شابهتك بكل الخصال. أين أنتِ.

نظرت من حولي إلى جدران وأثاث المنزل.

منزل جدّتي لم ولن يتغيّر، سيبقى المأمن والأمان، الملجأ والملاذ والمنفى الأخير في هذه الدنيا.

شردت قليلًا أتذكّر أيامًا مضت ولن تعود كما بيسان ذهبت ولن تعود مرة ثانية، قاطعتني خطوات جدّتي المتعثّرة إذ أنّها ذهبت بصمتٍ وتسلّلت من جانبي وأحضرت لي الإفطار وبعض الشاي السّاخن.

يبدو أنّك لم تتناول فطوركَ يارفيق.

نعم يا جدّتي، لم أضع في فمي لقمة تسند معدتي الفارغة إلى الآن، لا شهية لدي.

كلّه من تلك الساحرة بيسان، لا أعلم لماذا متعلّق بها.

لم يعد هناكَ بيسان.

أقررت الزواج؟ متأكدة بأنك لن تتركها.

لا لن أتزوج، بل تركت المنزل وانحسمت علاقتنا بالطّلاق.

يا لهذه البشارة في هذا الصباح، لو تعلم كم أفرحت قلبي.

قلت في قريرة نفسي:

كم أنتِ فرحة يا جدّتي وكم أن حفيدكِ حزين.

لقد كسر قلبي يا جدتي، تحطم كالزجاج إلى قطعٍ. لم أتخيل هجرانها لي، لقد كانت تعلم بكل ما يجول بقلبي قبل عقلي. علمت بأنني تحدثت مع فتياتٍ وخنتها معهن. تعلم بأنني متعب منها لذلك لملمت ما تبقى لها من عزة نفس وكرامة وذهب لوالدتها.

صمتت جدتي بعد كلامي ذاك. أرادتني أن أتزوج نعم. لكنها لم ترد لقلبي أن يكسر، هذه هي القاعدة فلتكسر قبل أن تكسر. تألمت جدتي لحالي وبقيت صامتة تستمع لنواحي ونحيبي وتتحمل بكائي المرير طوال اليوم إلى أن غفوت على ساقيها من التعب.

عندما فتحت والدتي لي الباب ونظرت إليّ وكأنها فهمت ما حصل دون جهد مني للشرح والكلام لم أبكِ، لم أرتمِ في حضنها منهارة كما اعتدت سابقًا. لقد نضجت، أو ربما ما عاد شيء يهمني في هذه المرحلة. يكيت بما فيه الكفاية، ذرفت بحارًا من الدموع، جلست على الأريكة بالقرب منها ضامةً ساقاي إلى صدري متكورة على نفسي كالسلحفاة.

هل قمت بطلب الطلاق؟

أجبتها باقتضاب إيجابًا على كلامها.

سأجهز لكِ حمامًا ساخنًا، فلتستحمي ولتسترخي ونتحدث عن الأمر.

لم أناقشها ولم أرفض عرضها، فربما حمامٌ ساخنٌ في وضح النهار كفيلٌ أن يحل جميع مشاكلي. تمددت في خوض الاستحمام الذي تندفع منه الأبخرة معلنةً عن درجةٍ عاليةٍ من الحرارة، استرخيت لحرارة المياه وإنعاشها. كانت فقاعات الصابون تحيط بي من كل الجهات تفرقع قبل أن تكبر ويكتمل نموها، ذكرتني بحالي، سأفرقع وأموت قبل أن أكبر وأتفتح على هذا العالم. ضربت الماء بيدي لتختفي كل الفقاعات وأكمل استحمامي دون صورٍ وتخيلات. خرجت أشتم رائحة البن اللذيذة المنبعثة من غرفة الجلوس.

تعالي فلنتناول بعض القهوة يا طفلتي.

لم أرفض طبعاً ولم أقبل بذلك، فقط أنصتّ لكلامها وتربعت أمامها ناعسةً غائبة البال.

لم أقوَ على شيءٍ حينها، حتى إن سألتني سؤالًا لا يحتاج لتبرير أو إجابة ...أكتفي بهزّة رأس فقط.

كانت تحدّثني وتحاول مواساتي وإخماد الحرائق التي اشتعلت وتضمّد الجروح المفتوحة.

لفتت تركيزي المشتت عندما قالت لي أن الطلاق هو خروج الزوجة عن عصمة زوجها وتتحرر منه.

لكن يا أمي أنا لم أتمنَّ يومًا أتحرر فيه منه وأخرج عن عصمته وطاعته، يا للقدر كم هو غدّار يأتي بما لا تشتهي الأنفس من أحلام.

لا تحزني، ففي كل شرّ يصيبنا خير مكتوب من الله.

أيّ خير هذا سأعيشه بدونه؟!

ستتجاوزينه يابيسان، اعتبري أنكما زملاء فقط ولم تجمعكم علاقة زواج، يا بنيّتي...إن الطلاق ليس نهاية الحياة، بل بداية لحياة جديدة وفرصة للانطلاق من جديد.

الطّلاق لن يكون نهاية الحياة، بل الموت هو نهايتي وهو قريبٌ جدًّا لا محالة.

قاطع حديثنا طرق الباب، قفز قلبي ربّما أتى رفيق... أنا متأكّدة أنه هو.

ذهبت أمّي لتفتح الباب وإذ بصوت جدّة رفيق طرق مسامعي.

أين هي بيسان؟ أين هي؟

في الدّاخل، تفضّلي.

انتصبت أمامها احترامًا لها واقتربت منّي وأخذت تقبّلني حتى التهبت وجنتيّ، كادت دموعها تسقط من الفرحة.

ما بكِ جدّتي؟ لماذا فرحة هكذا؟

لو تعلمين كم سُررت بانفصالكما هذا، أنتِ قمتِ لي بشيءٍ أودّه يحصل منذ زمنٍ ولنْ أنسى لكِ هذا المعروف ما حييت.

تفاجأت بمجيئها أتت لتشكرني! جرحٌ آخر انفتح في صميم قلبي هذا الجرح الأكبر الذي لم أتوقعه أبدًا. تكوّر لساني وانعقد عاجزًا عن الكلام، قد نضبت كل حروف وجفّت كلّ الكلمات لم يسعفني شيء.

كم تلّقيت منكَ يارفيق قسوة هذه الفترة، هل أنت من أرسلت لي جدّتكَ كي تشكرني عن طريقها بان تخلصت مني بعد طول عناء؟ أم أنها جاءت من تلقاء نفسها؟

إن كنت تريد شكري لا تشكرني بطريقة "مِرسال المراسيل" كما غنّتها السّيدة فيروز، تعال وأخبرني ما هي الحكاية التي تريد إخباري إيّاها، لم أتخيّل أن قسوتكَ ستصل إلى هذه الدرجة. إن كنت مللت مني إلى هذا الحد لمَ لمْ تتركني وترحل عني أبكر من هذا؟

لم اخترت توقيت اقتراب موتي تاريخاً لبدئك حياة جديدة ملؤها الرغد؟ لا أود شتيمتك ولكنني أرغب بذلك بشدة الآن، أرغب بصفعي لجدتك وابتسامتها المستفزة وهي تقوم بشكري وأمي على اتخاذنا هذه الخطوة التي تصفها بالعظيمة. فبنظرها قد قمت بإعتاق رقبة! إنها تظن حقًّا بأنني كنت أحبسه معي في قفص الزوجية البراق. انفرجت شفتاي وتباعدتا عن بعضهما في محاولةٍ للرد على هذه المهزلة الحاصلة لكن يد والدتي كان أسرع من كلماتي، لم تتحمل إهانتها لي في وسط بيتي..بيت عائلتي. تخلت عندها والدتي عن أخلاقها واحترامها للكبير وصفعتها بملء قوتها. صدمت بحق، والدتي ذات القلب الرقيق الطيب تصفع عجوزًا بعمر والدتها!!

وضعت جدة رفيق يدها تتحسس مكان الصفعة التي حطت من مكانتها وذلتها، ثم نظرت إلى والدتي بعينتين مفتوحتين لآخرهما قائلة:

ما الذي فعلته يا أم بيسان! هل تجرئين على صفعي!

نعم، سأصفعك مرة واثنتان وألف إلى أن تتحلي ببعض الأخلاق.

جئتكم مسالمةً كي أشكر ابنتك الخرقاء على شجاعتها وتخليها عن حفيدي وتردين كرمي بهذا الشكل!

كرم؟ كرم؟! فلتصمتي أيتها الشمطاء فعجوزٌ مثلك لا تعرف الأخلاق والكرم، تجيئين لشكر مطلقٍ على طلاقها من شخصٍ أدماها بالجروح والآلام؟

ما بالك؟

أليس لديكِ أي أحساس أو ضمير؟.

يخونها يقلل من قيمتها وأنوثتها ثن تأتين لتتهميها بأنها من كانت تحبسه؟ حفيدك جبان يا سيدة. لم يكن يجرؤ على الابتعاد عن ابنتي، لذلك سلك طرق ملتوية لإشباع رغباته الحيوانية. وعلى حساب ماذا؟ كله على حساب مشاعر ابنتي المسكينة. اخرجي من منزلي، اخرجي من منزلي حالًا!! فلتذهبي ولتزوجيه ولتحظي منه بأحفاد وانسي أمرنا. لا أريد رؤيتك أو رفيق بالقرب من بيسان.

صفقت والدتي الباب بوجه الجدة وعانقتني بقوة. بحرقة أمٍ ترى ابنتها تتدمر شيئاً فشيئاً.

متأكدة أنا بأن جدتك ستبدأ فورًا بالبحث لك عن عروسٍ أخرى تليق بك، أكثر شبابًا أكثر أنوثةً وقوة. عروسٌ تليق بكَ و بوسامتكَ و رجولتكَ، هنيئًا لكَ بها مقدّمًا، أتمنّى أن تعوّضكَ عنّي وتكون سترًا وغطاءً وتحافظ عليكَ أكثر منّي، لكن وصيّتي لكَ يارفيق، وصيتي بأن لا تخذلها كما خذلتني أنا. لا تكسر قلبها إلى قطعٍ وتطأ عليه. أخبرتك عن وحدَتي وإني أريدكَ أنتَ فقط بجانبي وعاهدتني أنّك ستبقى على العهد ولن تخون الوعد، لماذا تخلّيت عنّي بهذه السهولة؟

لماذا تركتني أكمل الطّريق وحدي؟

هل لتقف خلف ظَهري وتغدرني بخناجركَ المسمومة؟

أأنتَ السّيء أم أنا كنت السيّئة؟

لقد تجرّعت مرارة الخذلان بكأسٍ مكسورة الحواف، فكلّما ابتلعت رشفة منه تسبّب بجرح حلقومي.

تركتني بنهاية طريقي لكن أنتَ لازلت في منتصف دربكَ، جعلتني هامشًا في حياتكَ لن تقترب منه بعد اليوم وأسيرة في هواكَ ورحلت للأبد، أنا بكَ اكتفيت وأنتَ عنّي تخلّيت.

عظّم الله أجر قلبي الذي أحبَّكَ وجعلكَ الله خاتمة لأحزاني.. ولكن لا رجوع بعد الآن، علينا أن نعيش ما تبقى من الحياة، ما تبقى من ألم وأوجاع.

اصطحبتني والدتي في اليوم التالي إلى العلاج الكيميائي، لقد قاموا بزيادة قوة الجرعات كما قال الطبيب سابقًا استلقيت على السرير ووالدتي جالسة بالقرب مني، جاء الطبيب ليطمئن على حالي قبل البدء بجلسة العلاج دخل من الباب مبتسمًا يحيي المرضى بإيماءة بسيطة برأسه متبخترًا في مشيته، شعره الأسود الممزوج ببعض الشعيرات الرمادية أعطاه هيبةً و وقارًا بالنسبة لأعوامه الأربعين القصيرة. كان نشيطًا كشابٍ عشريني، وماهرًا ويملك حكمة عجوزٍ سبعيني. يمتلك روحًا مرحةً ولطيفةً تنعكس في عينيه الزرقاوين. اقترب مني و ألقى التحية عليّ وبدأ بإجراء بعض الفحوصات لضغط الدم ونبضات القلب وما إلى تلك الفحوصات الروتينية.

أمر الممرضة بان تبدأ لي بالجلسةِ فور ذهابه. ودعني بإيماءة أخرى برأسه وذهب للسرير المجاور ليفحص مريضه الأخر، مللت وصف جلسات العلاج بآلامها وأوجاعها ذات الوجع يتكرر كل مرّةٍ، ما زلت أتألم منه ولكنني اعتدته الآن كصديقٍ قديم، نظرت إلى والدتي وسألتها عن عدم قدومها للاطمئنان علي عندما نمت ليلتين في المشفى بعد اكتشافي تفاقم المرض. كان سؤالًا متأخرًا بعض الشيء، ولكنني وددت معرفة السبب بشدة.

ابتسمت والدتي قبل أن تنطق بأي جوابٍ ثم مسحت دمعة كانت قد تمردت وهربت من مقلتيها.

لقد انهرت في اليوم التالي لمعرفتي الأمر، لم أتحمل فكرة انتشار المرض أكثر من هذا. تعبت جدًّا فساعدتني جارتي للذهاب إلى المشفى، علمت من رفيق متأخرةً بإغمائك عند الطبيب لم تسمح لي الفرصة للاطمئنان عليكِ فالأيام جرت مسرعة بعد ذلك اليوم.

بعدما انتهت الممرّضة من إعطائي جرعة الدّواء القاتل بدقائقٍ معدودة عاد الطبيب بتلك الابتسامة التي كانت سبب تفاؤل المرضى والتي تزرع فيهم الأمل لكنّ الأمل لديّ قد قُتل قبل أن أُقتل، بدأ يطمئن على حالنا ويراقب مرضنا بعد اتخاذ الجرعة إن كان هناك تحسّن فارق أم لا، حتى وصل الدّور إلى سريري.

أخذ يسألني عن حالي وأحوالي بغاية يلهيني عن همومي قليلًا لكنّه ذكّرني بها عندما سألني عن رفيق، ربما اعتاد على وجوده معي أكثر من وجود أمّي، التفتّ إليها ببرودٍ ونظرت إليها نظرة جامدة وبدأت أجهش بالبكاء دون أن أستأذن مَنْ في الغرفة، لكن مشاعري كانت مكبوتة وبكائي كان لا إراديّ والصّوت الذي خرج منّي بلا وعي.

سأل الطّبيب أمي وفي صوته نبرة تدل على شعوره بالذّنب:

ما بها؟ هل هو بخير؟

بخير، إنه بخير أيها الطبيب و لكنّهما سيتطلّقان.

كان جوابها كالسّكاكين تطعن قلبي بلا رحمة، اقترب منّي قليلًا وربّت عليّ بحنوٍّ فخيّل لي بأنّ أبي يقف على يساري مكانه ويقول لي:

لا تحزني يابيسان، لو كان فيه خيرًا لبقي معكِ من أوّل عمركِ حتى آخره...المهمّ أنتِ الآن فهو ذهب في حالِ سبيله وبالتأكيد سيبحث عن شريكة حياة أخرى ولكنك هنا وستبقين هنا. عليكِ أن تهتمي بنفسك وبصحتك، لا يجوز أن تبكي في كل مرة تذكرينه بها. فلنجعله ذكرى جميلة ولنحفظ هذه الذكرى في عقلنا ونخبئها جيدًا لأيام الحاجة لها. أما الآن، فأنت لست بحاجة إلى ذكراه أنت فقط بحاجةٍ للاسترخاء والنوم كي تريحي جسدك بعد كل هذا التعب. كوني على دراية بأن الألم النفسي ينعكس سلباً على أجسادنا. كوني أكثر حكمة يا بيسان، لا ترهقي نفسك أكثر.

سأتركلكِ ترتاحين الآن قليلًا، آسف لأنني ذكرتك بالأمر وزدت من آلامك. وداعاً إلى لقاءٍ آخر.

كان يعلم بأنني سأموت في أيّة لحظة لذلك قال لي وداعًا ولكنه أضاف إليها إلى اللقاء علّني أجاهد وأحيا حتى جلستي العلاجية التالية.

يا له من طبيب، لمسته حنونة كأبٍ للجميع. وكلماته كفيضٍ من أملٍ تطمئن القلب العليل.

خرج الطبيب وأمّي من الغرفة وبقيت أنا أتأرجح بين ذكريات رفيق السعيدة والمؤلمة في آن واحدٍ، كلّما أتذكّر شيئًا يجمعني معه أضحك باكية...سبحان من سوّاك لقد كنت مانحي الفرح والآن منحتني الحزن الأشق الذي يكوي القلب ويُدمي الفؤاد، ولو كنت أمامي الآن لكنت صفعتك من شدة حنقي عليكَ، وإن سألتني ذات مرّة ماذا لو عدت معتذرًا؟.

لأغلقت في وجهكَ أبواب القلب ولا أهلًا بكَ في عالم الحبّ ولا سهلًا، وليغرق قبطان تلك السفينة الخائن في شطّ الهوى ولتقرع أجراس القلب لتعلن عن انتهاء رحلتنا معًا.

وإن قلت لي...ماذا أيضًا؟

لتغادر ثنايا القلب التي أجلستك فيها فلَم يعد العرش صميم الفؤاد، ولا مرحبًا بكَ عمرًا ودهرًا وأخيرًا، فأصبح التخاصّم طبعنا ونحن له أهلُ، وجاء دوري حتى أعتذر لكَ فالمقام بالمقيم كان لا يليق.

ووداعًا لأنيسي و وَنيسي، لمن كان سيّد الرجال ومالِك قلبي.

وسامحتكَ كي لا يكون لنا عند الله للمتخاصمين لقاء.

فلا حجّة ولا عذر يقبل لكَ بعد فوات الأوان.

يا رفيق....

هل هذا الاسم لائق لكَ أم يا خسارة معنى هذا الاسم بكَ...للأسف لم يكن لكَ من اسمكَ نصيب، وأما أنا طفلتكَ المدللة التي كنت تناديها "مدللتي" قد أفسدها كثرة دلالكَ هذا والآن أصبحت تفتقده لماذا جعلتني أعتاد على شيءٍ أنتَ تفعله ولن تستمر به؟ لا يمكن للمدلل أن يفقد دلاله فجأة وبطريقة وحشية. لا يمكن "للمُدَلِّلِ" أن يتوقف عن تقديم الحب والدلال الفائض لمدللته فجأة دون سابق إنذار.

رفيق..

أريد معرفة شيء آخر أيضًا...كنت تناديني دائما بِ "نور عيني" ...أنا انطفأت، ولكن هل يا تُرى انطفأ النور في عينيكَ أيضاً وفقدت نظركَ أم أنك لا زلت تبصر كل شيء ونوري من بهت؟

بيسان ورفيق أولئك التوءم المتلازمان منذ مقاعد الدراسة شاء القدر أن يبعدهما عن بعضهما و قدّر لقلبيهما بالفراق للأبد دون بارقة أمل بالرجوع.

لن أنسى أيضًا مجتمعنا الشرقيّ ونظرته المقززة للنساء المطلقات. كيف يرمون المُطلّقة بكلامهم كرصاص البنادق ليخترق قلبها ويوقعها أرضًا صريعةً تلفظ آخر أنفاس كرامتها وشرفها. وتكثر أطماع الرجال بالمطلقة، أمر لم أعرف له تبريراً إلى الآن. فتصبح لقمةً سائغةً بأفواههم ويتهافتون عليها كالكلاب المسعورة علّها تقبل بغريزتهم الحيوانية بأرخص الأسعار.

لكن..

أنا مختلفة عنهم تمامًا، مختلفةٌ حتى عن باقي المطلقات. لا أحد سيطمع بمطلقة مثلي... مريضة...صلعاء الرأس وفقدت ملامح نضارتها وأنوثتها. لم أتوقّع بأن قرار طلاقي منكَ أعظم من خسارتكَ، من خسارة رجل كنت أحلم أن أكمل معه حياة زوجية سعيدة، وأبني معه عائلةً صغيرةً لنحيا ونرى أبنائنا يحبون ويعشقون كما فعلنا. شعرت بأنني ارتكبت في حقّكَ جريمة ستعاقبني عليها محكمة المجتمع الكبرى ويتوجّب عليّ أن أتطهّر منها لما تبقى لي من أيام عمري.

فماذا سأقول أمام قضاة هذه المحكمة عندما يسألوني لمَ أنا مطلقة؟

ما الذي سأقوله هناك على منبر المتهمين؟

كيف سأستردّ حقّي وأنا لا أملك في جعبتي أيّة أجوبة وأدلّة على براءتي من هذا الذنب؟

هل ستبقى الكلمات خرساء حبيسة على أطراف لساني؟

ما فائدة الصّمت وفي داخلي الصرخات تعلو الأصوات؟

ماذا أقول وأنا كل يومٍ يسلب مني المرض ذاتي، ونفسي، ودمي، وروحي، وعمري وأحلامي؟

أو أنها ستصبر وتكافح وتتحمل سقطات زوجها و زُلّاته وكلّ تقصيره وجفائه وقسوته. لن يرحم المجتمع المطلقة. فحين سينطق القاضي في محكمة المجتمع بالحكم، ستقاذفها ألسنة الناس بشتى العبارات وشتى الاتهامات التي لم تكن تعلم بوجودها من الأساس. وسترفع لافتات نصرةً للمظلوم..نصرةً للرجل..لرفيق. سيقف المجتمع أجمع معه ويجلدونني بكلماتٍ من سوط.

"مازال في مقتبل العمر، يستحق الزواج من اثنتان وثلاث ورباع. من حقه الحصول على طفل..من حقه أن ينام إلى زوجةٍ تهتم به."

سيقولون ويقولون ويقولون الكثير ولن أهتم، لأنني راحلة عما قريب. راحلة قبل أن أتحول لعلكةٍ في كلّ فاه. سأعود وأكرر، لا إنصاف على هذا الكوكب. فالأنثى مضطهدة إن كانت زوجة، أرملة، مطلقة، مخطوبة أو عزباء وصغيرة. جميعهن إناثٌ، جميعهن ظلمن هنا في كوكب الذكورية. ما الذي أتفوه به؟ ما شأن الاضطهاد بمشكلتي؟

طرق الباب ثم دخل رفيق دون استئذان،

رفيق! أهذا أنت يارفيق؟ كنت متأكدة من قدومك أعلم بأنك لن تتركني في المشفى وحيدةً دون أن تربت على رأسي الأصلع وتخبرني بأن كل شيء سيكون بخير. هات يدك..فقد اشتقت لدفئها.

مددت يدي للامساك به لكنه تلاشى عند لمسي إياه وكأنه كان سراباً أو من دخان. سقطت يدي لتتوضع على قدمي الممددة على السرير.

كان وهماً...

عدت مع والدتي إلى المنزل متعبةً. بدأ المرض يتعبني أكثر من ذي قبل. دخلت واستلقيت مباشرة على أول أريكةٍ واجهتها. كنت أشعر بدوارٍ قوي وبردّ كثير. زملتني والدتي بالعديد من الاغطية وأشعلت المدفأة لأجلي. كانت والدتي تتصبب عرقاً وأنا أتجمد. لم يعد لدي أي مناعة في جسدي ولا حتى بعض الدهون لتقيني من البرد القليل. أصبحت كهيكلٍ عظميٍ مكسوٍ بالجلد مشوه الوجه. كنت أليق للتمثيل في فلمِ رعبٍ ما. فوجهي كسته البقع السوداء والحفر جرّاء هذا السرطان اللعين. حتى أن جسدي انتشرت به بعض هذه البقع وخلفت أثارها البشعة. متأكدة أنا بأن جسدي من الداخل أيضاً مليءٌ به، ليس فقط رئتاي أنا أشعر به..حقًا أشعر بتجذره داخلي كالشجرة السامة التي تكبر وتنمو على حساب باقي النباتات من حولها، لكنني لن أستسلم رغم ذلك، يجي أن أبقي والدتي متعلقةً ببعض الأمل وإن كان هذا على حساب ألمي خلال جلسات العلاج. أنا أعلم بأنني ميتة لا محالة وقد سلّمت بالأمر وعلى قناعة به. لقد استعددت جيدا لهذا. ولكت والدتي ليست بمستعدةٍ بعد، مازالت تمتلك بعض الأمل بأن طفلتها، وحيدتها ومدللتها ستعيش لترى نور الأيام المقبلة. لقد تركها والدي، وها أنا أيضاً أشبع نفسي منها كل يومٍ خوفاً من أن لا أراها في اليوم التالي.

آسفة..

أنا آسفةٌ يا أمي..

بيسان..عن ماذا تعتذرين يا بنيتي ماذا هناك؟

اعتذر لك عن كل يوم سببت لك فيه الازعاج، أرجوك أمي..إن حلّ بي أمر ما أرجو أن يصفح قلبك عني. أتمنى لو يعود بي الزمن لأكون الابنة المثالية لك، سامحيني يا أمي إن بدر اي تقصير مني اتجاهك ولو لثانية.

لاتقولي هذا يا بيسان، لاتحرقي قلبي كمة فعل والدك. أنا واثقة بأن الله سيشفيكِ وستعودين لتملئي حياتي بهجة وسرور وتعلو ضحكاتك لتصدح في زوايا البيت كلها.

لم استطع والدتي التماسك بعد كلماتي هذه تركتني وانسحبت إلى غرفتها لتغرق في نوبةٍ من البكاءِ الهستيري. ظنت بأنني لا أسمعها..

ليتني لم أسمعها..

أنا مدللتها، أنا حرقة قلبها.

لا اعلم كيف أتصرف، فأنا لم أمر بهذه الاجراءات من قبل. كان الحب أسهل..أحببتها وتزوجتها. أما الآن وبهذه الطريقة التقليدية للخطبة بت اشعر بالاشمئزاز من عاداتنا القديمة حيث تدخل الفتاة بأبهى ماعندها من ملابس واضعة الكثير والكثير من مساحيق التجميل لتلفت

نظر الشبان إليها. هنا...كل مايهم هو الشكل والحسد، لا الروح ولا المضمون مهم. مللت الأمر ومللو الطرق على أبواب الناس ورؤية بناتهم، شعرت بأنني أستبيح حرمتهم لكن بإذن منهم. يالها من سخرية.

بعد طول عناء وطول بحثٍ وتمحيصٍ من جدتي. وجدنا ضالتنا كما وصفتها الأخيرة. وجدنا زوجة لي.

دخلت كما جميع الفتيات بأجمل الملابس وأغلى الحلي حاملةً صينيّة القهوة التي تفوح منها رائحة أرقى العطور وأثمنها.

من حيث الجمال فلا تقلّ عن جمال بيسان في ذاك اليوم، فالوجه ملائكي ذا لون أبيض ومستدير والعيون جذّابة ناعمة، تتميز بشعرِها الأسود الطبيعي القاتم الذي لا تخلّل سواده ألوان ولا صبغات، شفاهها لامعة بلون الورد ووجه مشرق كالشمس، أما القوام ممشوق منتصب لا يوجد أي عيب فيها يدفعني لرفض الزواج منها وابتسامتها كنسمة لطيفة من نسمات الصّيف الحارّ. مشت تتبختر أمامي في ثوبها الأحمر الضيق مبرزةً مفاتنها كي أعجب بها.
وبالفعل..أعجبت جدتي بها وطلبتها من والدها على الفور.

كانت أمور الخطوبة تسير سريعاً جداً. فقد أقمنا حفلة صغيرةً لنتبادل بها المحابس ونعرف العائلتين إلى بعضهما.

اشعر بالعار من تفكيري ولكنني أرى بها بعضاً من بيسان، بعضاً من حسنها وجمالها. أتمنى أن تكون نسخة عنها في كل شيءٍ كي لا أشعر بالفقد والبعد. ما الذي أفعله الآن! أخون زوجتي في أول يوم خطوبةٍ لنا مع زوجتي السابقة في مخيلتي! تباً لي. انتهت الحفلة وأبدا والد عروستي رغبته في العجلة بأمور الزفاف ونحوها. كان الجميع فرحاً متشوقاً بهذا الكلام إلا أنا. كنت كرجل آلي أنفذ فقط لا إلا،جل همي إرضاء جدتي وإجلاب طفلٍ وحفيدٍ لها.

لم أجادله بالأمر، وافقته بالطبع وحددنا موعداً لعقد زفافنا بعد أسبوعٍ من الآن.

كان أسبوعاً حافلاً مليئاً بالأعمال. فتجهيز المنزل وإعداد لائحة بالمدعوين بالإضافة لاختيار المكان كلها أمورٌ لم أعلمها وأقم بها من قبل. بالاضافة لانشغالي بتجهيز أوراق الطلاق لتقوم بيسان بتوقعتها وإنهاء الأمر.

انتهت تجهيزات الزفاف..

انتهت كل الأوراق..

بتنا الآن رسميا مطلقَين.

حان الوقت لوضع بيسان جانباً، حان الوقت للإغلاق على ذكراها. الزفاف بعد يومين، لا يجب أن أشغل نفسي إلا بعروستي الجديدة. ليس باليد حيلة، هكذا شاء القدر بأن نفترق. لا عزاء لقلبي المحطم، لاعزاء لي.

بعد استلامي ورقة الطّلاق فقدت

الأمل في كلّ شيء فرَفيق أزال بهذه الورقة بيننا كل خطوط العودة. أعلم بأن هذا من صنيعي، أعلم بأنني أنا من طلبت الأمر ولكنني أشعر بالظلم والقهر. أكان من الخاطئ طلب الطلاق

والابتعاد عنه؟ هل كان علي أن أبقى معهرغم كل معاملته السيئة لي؟ قلبي يؤلمني..أشعر بأنه سينفجر.

فقد جاء اليوم الموعود، جاء يوم زفافه من أخرى . فاليوم الفرحة والسعادة له و الألم والموت لي.. لكنه من طعم آخر اليوم. استيقظت أمي منذ الصباح تحضّر نفسها للذهاب وإثبات وجودها في الحفلة. ارتدت الأسود حداداً على ذكرانا .

مرّ النّهار ببطء شديد وكأن عقارب الزمن توقفت عن الدوران لتديم هذا اليوم وهذا الألم علي. انتظرت دهراً حتى آن موعد بدء الحفل، همّت أمي بالذهاب وبقيت أنا وحدي في المنزل حبيسة آلامي أنتظر عودتها بفارغ الصّبر.

يالوقاحتك يارفيق..كيف لك أن ترسل بطاقة دعوةٍ لوالدتي؟ ألم تشعر بالخجل! ألم يؤنبك ضميرك على فعلتك هذه؟ لا أدري ما الذي حصل لك ولكنك لم تعد رفيق الذي أعرفه. لم تعد رفيقي...

جلست أعدّ الدقائق والسّاعات متنقّلةً بجهدٍ بين غرفة وأخرى ثمّ خرجت إلى فسحة المنزل كي أنتظر عودتها بنَفسي وأفتح لها الباب عند وصولها.

أخيرًا استسلمت لكن بقيت أنتظر قليلًا وبعد مضي خمس دقائق تقريبًا رأيت أمي تدخل إلى العمارة.

هرولت مسرعةً كي أعرف كيف كان زفاف زوجي السّابق،

أمّي لقد تأخرتِ كثيرًا عليّ.

لم أذهب حتى قارب الحفل على الانتهاء.

وكيف كان؟

كلّ شيء على ما يرام؟

لا أسألك عن الحال، أريد معرفة ماذا حدث بالتفصيل.

لكن يا بنيّتي التفاصيل مؤلمة و لا تهمّكِ بعد الآن فهو دخل إلى بيته مع زوجته.

لا تهمّني، لكنّي أريد معرفتها.

كما تريدين، سأسرد لك ماحصل..

جلستُ كما المتعدي على منزلِ أحدهم في أقرب نقطةٍ إلى الباب. ظللت أنظر إلى الناس والفرح الذي هنّ عليه. أيعلمون ياترى خفايا هذا الزواج؟ أيعلمون أن قلباً قد كسر بسببه ومنزلاً دمرَ. أيعلمون ياترى بأن هناك فتاةً تنوح في المنزل وهي تتخيل ليلة عمر زوجها السابق؟ بكلماتٍ أخرى حبيبها ونبض روحها السابق. لا يعلمون...لايعلمون بأن هناك أمٌ ثكلى تجلس بينهم جاءت لتبارك زواجهم بالدعاء والشتائم. فتح الباب و دخلت العروس تتبختر بين الطاولات تعرض نفسها، فخورةٌ بإنجازها العظيم التي هي على وشك تحقيقه.كم وددت لو أرشها بالماء، كم وددت لو أنها تسقط أثناء رقصها فهي ساحرةٌ بنظري ترقص على قبر بيسان. وقفت وعزمت على فعل أي شيء، أي شيءٍ قد يطفئ نار قلبي.

أم بيسان؟ يا أهلا وسهلاً بك لقد سررت برؤيتك جداً.

نظرت في وجه المرأة وإذ بها جدة رفيق. كانت ترتدي فستاناً ذهبياً وتلون وجهها بالعديد من الألوان التي لاتليق بعمرها.

يبدو بأنك سعيدة جداً أيتها الجدة.

أووه نعم نعم أنا في أقصى درجات الفرح، شكراً لكِ لأنك لبيتي دعوتي بالقدوم.

ابتعدت عني ونظرات الخبث بادية على وجهها المجعد اللعين. جلست أنتظر قدوم رفيق، فلا بد لي من مباركته قبل ذهابي وإعطائه هذه الهدية.

زفّ رفيق إلى الصالة بعراضةٍ باذخة. طبول وسيوف وراقصون يلتفون من حوله. جميعهم يطؤون على قلبي في كل خطوة. اقترب من عروسه وأنزلها من عرشها وقبل أن يرفع الستار عن وجهها ناديته من خلفه. صدم عندما تستدار، لم يلحظ وجودي، لم يعلم بوجودي!

لقد دعتني جدتك لمباركتك ولم أشأ تفويت هذه الفرصة. مبارك لك ياعريس.

مددت ظرفاً كان في يدي وأعطيته أياه. فتحه مسرعاً وصدم بصورة زواجه من بيسان تتربع وحيدة في الظرف الورقي. فتح فمه محاولا الاعتذار أو التبرير أو الشتائم لا أدري، فقد استدرت مغادرة ودموعي تنصب على وجنتي كشلالات غزيرة. خرجت دونما إلتفات، خرجت بلا عودةٍ. انسحبت بيسان بعد إنهائي لكلامي إلى غرفتها ولم تخرج منها حتى نهاية اليوم التالي.

نادتني أمي لأتناول طعام العشاء، عشاء اليوم التالي من زفافك يارفيق. هل أنت سعيد؟ هل أنت مرتاح معها؟ هل تعاملك كما كنت أنا أعاملك بحنوٍ وحب؟ لا..فأنا لن أتكرر ولن يقدم لك أحداً ماكنت أقدمه.

باتت في القلب مرارة بجانب آثار المرض العضويّة والنّفسيّة القاسية، من بعد زواجكَ هذا أصبحت أسيرة الكوابيس وسجينة الأحلام المُرعبة، لكِن مايراودني الآن... كيف قلت لي وداعًا ومضيت هكذا؟

ابتعدت عنّي أميالًا دون الالتفات إلى ما تركته خلفكَ؟

هل أنا أخطأت حينما قررت ان أكون مُطلّقة؟

أم كان يتوجّب عليّ أن أبقى وأصبح الزّوجة الأولى وفي الصفحة الثانية من دفتر العائلة يوجد اسم زوجة ثانية؟ يستحيل ان تشاركني إحداهن بك. إما أن أكون أو لا أكون. لا أود أن أكون طبقاً جانبياً في حياتك تنهل منه الحب والحنان وتنهل منها الشهوة والأطفال.

لقد خلقت سحابًا تبكي بدموع منكسرة وتركت وراءك قلبًا يتبعك في متاهات صعبة ودوّامة لانهاية لها، لقد أغلقتَ جميع الأبواب بيننا ولم تترك بابًا واحدًا مواربًا ربّما تحتاجه للعودة يومًا ما.

لكن لا عودة لكَ، وإن عدت سأقطّعكَ وأرميك بلا رحمة مني.

مضت الأيام تباعاً، ولم أمت...

مرّت عشرةُ أشهرٍ تقريباً منذ امتداد السرطان إلى رئتي. لم يتوقف عند ذلك، استمر بالتمدد شيئاً فشيئاً إلى أن أسس لنفس مستعمرةً داخلي. يبدو بأنني متمسكةٌ جداً بالحياة، لطالما أخبرت نفسي بأنني مستعدة لمواجهة الموت. كنت أكذب على نفسي رغبةً مني بالتخلص من الألم فقط، لكن الموت ليس بهينٍ. كيف لي أن أترك الناس من حولي؟ والدتي على سبيل التحديد، كيف سأتركها ولمن سأترك حملها عندما تكبر. وأنا..مالذي سيحلّ بي بعد الموت. أسأكون ملاكاً في الجنة؟ أم أنني سأتعذب وأتلوى في نار جهنم المستعرة؟ هذه الفكرة وحدها تخيفني، تؤرق ليالي وتمنعني من النوم. ماعدت أنام إلا عنوةً بمساعدة المهدئات. أخشى أن أغمض عيني وان لا أفتحهما مرة أخرى. أصبحت المشفى منزلي، لم أعد قادرة على التنفس دون مساعدة الأجهزة. أصبحت السيرومات صديقتي العزيزة لاتفارقني ليل نهار، أشكو لها بصمتٍ حالي ووجعي..لا أحد يسمع أنيني غيرها. فحتى جرعات الدواء الكيميائي ما عدت قادرة على الإفصاحِ عن ألمها المبرح. يمكنني الآن القول بأنني أصبحت جثةً بشكلٍ رسمي. كنت سابقاً أدعو نفسي بذلك ولكنني كنت أتمكن من السير، من الأكل وتناول الدواء بنفسي. ولكن الآن وبعد منازعةٍ طويلةٍ مع المرض التصق ظهري بالسرير من كثرة الاستلقاء وعيناي أقصى ماتراه السقف وجدران الغرفة البيضاء. والدتي تشتت بين منزلها وبين المشفى، فتنام يومان أو ثلاثة عندي ثم تذهب إلى المنزل مخفيةً آلام ظهرها ومفاصلها التي باتت تعتني منها من كثرة الجلوس والنوم على الكرسي بقربي.

يا لي من ابنةٍ عاقّةٍ، كان علي أن أعتني بها لا أن أسبب لها التعب والشقاء. أهٍ يا أمي، يصعب علي حالك، يصعب علي تركك هكذا وحيدةً. لكن الله شاء أن يمتحننا ويمتحن صبرنا وأيماننا بهذه الطريقة. لا اعتراض على حكمك يا الله..لا اعتراض على حكمك يارب. أرجو بعد موتي أن تسخر لها ياالله أناساً ليعتنو بها، أناساً طيبين يخافونك بها. لا تدعها تشقى وحدها، لا تدعها تمت وحيدةً.

هل استيقظتي يا صغيرتي؟

هززت رأسي بالإيجاب.

اليوم سيأتي الطبيب ليقوم ببعض التحاليل والفحوصات لك، وربما سيضطر لأخذك للتصوير الشعاعي. قالت الممرضة منذ قليل لي هذا كي أخبرك وتجهزي نفسك للأمر.

حسناً أمي أنا مستعدةٌ في أي وقت يأتي به. فليس لدي ارتباطات بجدول مواعيدي اليوم.

أطلقت والدتي ضحكةً خافتةً ووضعت يدها على رأسي لتقرأ لي بعض القرآن علّه يخفف عني قليلاً ويريحني.

لم يتأخر الطبيب بالقدوم، جاء ومعه ممرضتين كي يساعداني على الانتقال إلى السرير الذي سينقلاني به إلى غرفة التصوير. تم سحب الدم ووضعه في أنبولات التحليل الصغيرة كلٌّ لأمر معين. قاموا بجرّي إلى غرفة التصوير الشعاعي، وصديقي قناع الأكسجين لايفارق وجهي ثانية. كما العادة، تم إدخالي في جهاز التصوير الذي لطالما شبهته بفرنٍ إشعاعي. بدات الأضواء والأصوات من حولي تشتد إلى أن انطفأت بعد دقائق. كان الطبيب برفقة والدتي بقفان في غرفةٍ مغايرة تحتوي على العديد مز الحواسيب التي يشاهدون عبرها صور الإشعاع. عندما أخرجوني لم تكن ملامحهم تبشر بأي خيرٍ، ولكني لم أسأل..لم أعد مهتمةً جداً. جررت عبر ممرات المشفى على السرير كميتٍ ينقل إلى برادات الموتى الموحشة. تقاطع طريقنا مع امرأةٍ يبدو بأنها قد ولَدَت من مدةٍ قريبةٍ تضم طفلها إلى صدرها والدنيا لا تسعها من شدة فرحها

بنتاجها هذا. يالهذا المشهد، الموت والحياة يتقاطعان، يمران بالقرب من بعضهما وكأنهما يمرران الأدوار والمهام لبعضهما البعض. انفرجت ابتسامة صغيرة من شفاهي إلى أن بددها رؤيتي للشخص الذي يجرّ كرسي تلك المرأة. لقد كان زوجها..كان زوجي!

يالهذه الدنيا الصغيرة. لم افكر به منذ مدّةٍ. كيف له أن يظهر أمامي كهذا بهذا الشكل، مع زوجته وامرأته. بدا سعيداً..بدا وكأنه يمتلك العالم بيده. تلاقت أعيننا لثوانٍ معدودة، ثوانٍ كانت كفيلةً بتحطيم كلينا. حطمت فرحته بطفله، وحطمت فرحتي بموتي. لم نتوقف، تابعنا السير كما فعلنا قبلاً مراتٍ عديدة. وصلت إلى غرفتي وعدت لمشاهدة عفونة السقف وجدران الغرفة الأربعة.

ظننت بأنني نسيت أمره حقاً. ليس نسيانا بما تعنيه الكلمة من معنى لا، الإنسان لاينسى. الإنسان يتناسى ويتعايش مع مصيبته ثم يرميها في زاويةٍ مظلمة يملؤها الغبار في أخر عقله يسميها النسيان. نفضَ الغبار عن ذكراه المؤلمة بنفسه، يبدو بأنه لا يحب بأن ينسى ويرمى جانباً كقطعة ثيابٍ بالية. أشعر ببعض الارتياح رغم ذلك. يبدو بأنه حقق حلمه بالحصول على طفلٍ صغير ليرث اسمه ويحمله على كفوف الراحة في شيخوخته. هنيئاً لك يارفيق. أكرهك..لكنني لا ألومك الآن على فعلتك وزواجك من غيري، فلا يجب أن تتوقف حياةُ أحدهم على أحدٍ أياً كان. الوقت لاينتظر أحداً ولا يعترف"بالوفاء". عقارب الساعة ستستمر بالدوران ولن يوقفها مرض أحدهم أو انكسار أخر. يجيب أن نمضي..يجب للوقت أن ينقضي ليصل إلى المالانهاية. علينا أن نمضي أيضاً ولكن إلى نهايتنا.

فتح الباب ودخل رفيق بكل جرئةٍ ووقاحةٍ يمسك طفله بين يديه.

كيف حالك بيسان؟ أرجو بأن وجودي هنا لا يزعجك؟

لم أجبه بأي كلمةٍ، اكتفيت بالنظر إلا ذاك الكائن الصغير النائم كالملائكة بين يديه، فأكمل كلامه متجاهلاً صمتي وعدم نظري إليه.

أسفٌ على ماسببته من أذى لكِ وحرقة وانكسار. لم أرد لكل هذا الأمر أن يحصل. تمنيت كثيراً لو أننا لم ننفصل. لقد جرحتك كثيراً وسببت لك آلاماً لا تغتفر. لكن أود أن أشكرك رغم ذلك. لو أنك لم تبادري وتطلبي الطلاق لربما ما جرأت أبداً على مفاتحتك بالأمر. لو أنك لم تتركيني لما كنت أنجبت هذه الملاك الرائع. لو أنك بقيتي معي لما أصبحت أباً لربما حتى مماتي. شكراً لك يا بيسان وأتمنى من كل قلبي الشفاء لكِ وأن يكون إعتاقك لي سبباً لدخولك جنان الخلد.

استدار رفيق كي يخرج ويتركني أموت في غيظي، لكنه تذكر أمراً فعاد مواجهاً لي مرةً أخرى وأضاف إلى كلامه،

نسيت ان أخبرك بأنها فتاة..قد أسميتها بيسان كي لا أنسى فضلك علي طول حياتي.

لم أتمالك نفسي بعد نطقه بهذه الكلمات. ماباله! هل جاء ليعذب مريضةً على فراش الموت حقاً؟! أيعتقد بأنه أسدى لي معروفاً بكلامه هذا! أعلي الآن البكاء شكراً لله لأنه أنعم علي بتسمية طليقي ابنته على اسمي! كفى.. كفى لقد طفح الكيل. بدأت أصرخ بشكلٍ هستيريٍ وأرمي الأشياء من حولي على رفيق الذي لم يتحلى بأي صفةٍ من اسمه وعلى بيسانته الصغيرة الجديدة. خلعت قناع الأكسجين ورميته عليه، اقتلعت إبرة المحلول الملحي المثبتة بذراعي بقوةٍ جعل الدم يتناثر على الأرض وعلى ملابسي ورميت المحلول وحامله عليه. بالكاد استطاع حماية ابنته، التي بدأت بالبكاء، من ضرباتي ورمياتي العشوائية.

أنا..

بيسان..

فقدت عقلي بشكلٍ رسمي.

دبّت فيّ قوةٌ خفية أعانتني على النهوض والامساك به. حاولت تخلصه ابنته، لا أدري لماذا ولكنني أردت أخذها من بين يديه. حاول دفعي ولكنه لم يتمكن بسبب اهتمامه المصبوب على سلامة ابنته فقط، تلقى مني الكثير من الضربات التي ليست بموجعة البتة. كنت أصرخ وأصرخ إلى أن أتت الممرضات وأبعدتني عنه، سقطت أرضاً فانشغل الجميع بي ونسوا أمر الرجل وابنته الرضيعة. كان يقف في زاوية الغرفة خائفاً، نادماً، باكياً. ضمّ بيسانته بقوةٍ وخرج مسرعاً من الغرفة عند دخول والدتي. حمد لله..لم تلحظه فقد كانت مرعوبةً على ابنتها المرمية أرضاً دون أن تعرف السبب بذلك. فقدت وعيي عند رؤية أمي والطبيب، ابتسمت ظناً مني بأنني لن أستيقظ هذه المرة. سأموت بسلامٍ الآن دونما ضغينة في قلبي. لقد انتقمت منه، ضربته وآلمته على ما أتمنى. فلتعش بأمانٍ يارفيق..فلتعش.

استفقت على صوت الطبيب يحادث والدتي ويطمئنها على حالي. نظرت من حولي لم اجد إلا والدتي التي أسرعت إلي عندما فتحت عيناي والطبيب الذي كان يكتب بضع ملاحظاتٍ علة ملفي الطبي ليعيده مكانه ويقترب مني هو الأخر.

كيف تشعرين الأن؟ هل أنتِ أفضل؟

نعم انا بخير أيها الطبيب..لماذا لم أمت؟

صدم الطبيب لسؤالي ووبختني والدتي للكلام عن الموت الآن.

ما بكِ بيسان ما الذي خصل لك كي تنهاري أرضاً وترمي ما حولك؟ لقد متّ قلقاً عليكِ ياصغيرتي وأنت تتكلمين عن الموت الآن وكأنه أمرٌ سهل الحدوث! لن تموتي..لن أسمحَ لك بتركي أيتها الشقية.

ما الذي تقصدينه؟ لماذا لن أموتَ الآن؟ ألم تخبركم صور الإشعاع بذلك؟! لقد رأيتكم مكشرين عاقدين حواجبكم عند رؤيتكم للصورة.

ضحك الطبيب وعقدت والدتي يداها أمام صدرها علامة على عدم الرضا بتجسسي عليهم وتأويل الأشياء على مايحلو لي.

لماذا تضحكان؟ ماذا هناك؟

كانت الصورة غير واضحة أيتها الغبية لذلك كنا عاقدي الحواجب محاولين أن نرى ما في الصورة. والحمد لله كانت أموراً تبشر بالخير.

الخير؟ يا الله..لم اسمع هذه الكلمة منذ زمن. هل حقًا مازال هناك خيرٌ لي في هذه الدنيا؟ أنا! بيسان والخير! لا أتناسب مع الخير أبداً رغم ذلك نظرت إلى الطبيب وسالته عمّا تتفوه فيه أمي من ترّهات.

خير؟ خير ماذا أيها الطبيب؟

صور الإشعاع أظهرت تراجعاً ملحوظاً بامتداد الخلايا السرطانية التي في جسدك. لقد بدأ بالانحسار، لذلك عادت لك بعض من قوتك الجسدية واستطعت النهوض لوحدك دون مساعدة.

أمسكت والدتي بيدي وشدت عليها بقوةٍ.

هناك أمل يا بيسان هناك أمل! إن استمررتِ بالعلاج شهوراً أخرى ستشفين بإذن الله.

استشطت غضبًا ونفضت يدها عن يدي ثم نهضت واستندت على ظهر السرير.

أمل؟

انتظرت هذا المسمى بالأمل كثيرًا..انتظرته ليالٍ طويلة أبكي بحرقةٍ علّه يشفق علي ويؤنسني. انتظرته أسابيع كثيرةً بحرقةٍ وأنا على يقينٍ بأنه سيأتي يوماً ما. انتظرت شهراً واثنين وعشرة ولكنه لم يطرق بابي ولم يلح في الأفق. والآن يأتي؟ بعد ان تخليت عنه بشكل نهائي؟! بعد أن نسيته تماماً وتعايشت باستحالة وجوده؟ أتعلمون؟ تباً له..فلتحتفظوا بالأمل لكم ولمن يحتاج له، فأنا لم أعد بحاجته. لقد اكتفيت من هذه الحياة، لن أنتظر منذ اليوم شيئا عدا الموت. اقترب الطبيب مني محاولًا تهدئتي وتوعيتي لمخاطر كلامي هذا. صفعته بقوّة وأخبرته بعدم محاولته الاقتراب مني. انصاع لأمري وطلب من الممرضة أن تنزع عني المحلول الملحي كي أتمكن من المغادرة. نهرتني أمي لقراري هذا فقد دعته بالانتحار لكنني لم أصغي لها البتة. تجهزت للخروج ووضبت وأمي جميع أغراضنا، استوقفنا الطبيب قبيل خروجنا وألقى بضع كلمات على مسمعي علّي أتراجع عن قراري.

بنيتي..أكلمك الآن بصفتي بمقام والدك بمقام أخيك او صديقك اعتبريها كما تودين. لكن من المهم ان تسمعي كلامي الأن وتفهميه جيدًا. قرارك بمغادرة المستشفى وتخليك عن العلاج الكيميائي خاطئ، ما دمنا أحياء علينا مقاومة المرض بشتى الوسائل وإن أتعبنا الأمر. لا يجب علينا الاستسلام فلا تعلمين موعد الفرج، من الممكن أن يتأخر كثيرًا ولكنه سيأتي لا محالة. لقد حكمتي على نفسك بالموت، وستجازين عند الله لهذا. والله يعلم بأنني قمت بما علي فعله وأكثر لمساعدتك. لا ذنب لي بما ستلقين في الايام المقبلة. لم أنتظر منه إنهاء كلامه، استدرت وخرجت متعكزةً على والدتي منطلقةً إلى الفصل الأخير من قصتي.

وصلنا المنزل بحلول المساء. استنشقت رائحته بنهمٍ وأنا أعلم بأنها أخر مرةٍ. أود الموت في منزلي، في غرفتي الصغيرة التي عشت بها سنين عمري الجميلة. لا أود الرقود على سريرٍ أبيض وأموت هناك كأي مريض. لست أي مريض. خلف مرضي قصة قهر، قصةٌ ملؤها الألم والحزن. خلف مرضي العديد من القلوب المكلومة، خلف مرضي فتاةٌ مظلومة. لذلك لست بأي مريض. أنا بيسان وسأموت كبيسان. لن أموت في مشفى ليقولوا ماتت مريضة الغرفة السابعة. سأموت في منزلي وعلى سريري الخاص المرصع بالزهور والأحلام. دخلت غرفتي، كانت مرتبةً كما تركتها عند زواجي، ولكنها مليئة بالغبار..مليئة بالخيبات. جلست على مكتبي أنظر من النافذة المقابلة له والتي تطل على حديقة الحي. لطالما كانت هذه بقعتي المفضلة من المنزل. فقد سطرت نجاحاتي على هذا المكتب، دونت أحلامي وانا احتسي القهوة على هذه النافذة صباحًا أستمع لفيروز.

آهٍ من فيروز، لقد اشتقت لصوتها العذب الذي يداعب الأذنين برقته. تناولت هاتفي لأشغل لها أغنيةً على مكبر الصوتِ لتدوي نغماتها في كل المنزل.

"بتذكر آخر مرة شفتك سنتا

بتذكر وقتا أخر كلمة قلتا

ومعدت شفتك...وهلا شفتك

كيفك إنتا ملّا إنت..

كيفك؟ قال عم بقولوا صار عندك ولاد.."

استمرت فيروز بالغناء وسبحت انا في بحر الذكريات. أول مرة رأيت بها رفيق في الجامعة ونظرات الحب والهيام ظاهرةٌ في عينينا. أخر مرةٍ رأيته بها عند خروجي من المنزل بعد أن قسوت عليه بالكلام وطلبت الطلاق.

أول كلمة بيننا...آخر كلمةٍ بيننا

حبي لك في البداية...وكرهي لك في النهاية.

طفلتك! بيسانتك الصغيرة الجديدة.

كل هذا غنته السيدة فيروز لنا..نعم غنته لنا في أغنيتها هذه، أغنيتنا المفضلة.

"بيطلع عبالي..إرجع أنا وياك

إنت حلالي..إرجع انا وياك"

كان الحياء والخجل مع الحب يملؤنا عند سماع جملتها تلك. ولكنها الآن تملؤني ألمًا وحرقةً.

لن نعود...ولن نرجع لبعضنا.

أنت لست لي.

غفوت على المكتب دون أن أشعر فأيقظتني والدتي منتصف الليل كي أستلقي على السرير وأرتاح. قمت بإسكات فيروز التي كانت ماتزال تغني بحنجرتها الذهبية خلال نومي. شعرت بارتياحٍ كبير لا أعلم ما سببه. غططت في نومٍ عميقٍ تحت غطائي الوردي الدافئ كما لم أنم من قبل.

استيقظت مع أول خيطٍ بدا للشمس. أشعر بالنشاط هذا الصباح. نهضت وغسلت وجهي لانفض بقايا النوم عني. ارتديت ملابسي الرياضة مع حذائي الرياضي المفضل وانطلقت أهرول بالحي. أشعر برئتي تنتفضان وتتوردان من كمية الهواء النقي التي أستنشقها. لم ألحظ كم أن الحي الذي أعيش به جميل ومليءٌ بالأشجار. تحاوطني النباتات والحشائش من كل جانب. نظرت إلى الوراء كي أرى كم ابتعدت عن المنزل لأجد بأنه قد اختفى...

تتكاثر الأشجار بسرعة، كل ما حولي يكبر ويصبح ضخماً ليعانق السماء. تشتعل النار في كل شيء، تحيطني من كل جانب. يتعالى الدخان ويزداد لم اعد أرى شيئاً من كثافته. لم أعد قادرةً على التنفس. بدأت بالسعال والتنفس بهستيريةٍ. أنا أختنق! أبحث عن الهواء لأتنفسه لأحيا، أستنشق الدخان عوضًا عنه ليملأ رئتاي غبارًا وسواد. جثوت أرضًا على ركبتي أطوق رقبتي بكلتا يدي، كنت قد شارفت على الموت ولكن نافذةٌ ما فتحت من العدم لتمتص كل هذا الدخان ولتسمح بالأكسجين بالدخول وحلول مكانه.

نهضت عندما شعرت بيَدا أمي تسحبني نحو النافذة لأستنشق بعض الهواء النقي، كنت أختنق حقًا نسيت فتح النافذة لتجديد هواء الغرفة ونمت دون أن أعطي بالاً للأمر. كنت أستنشق كمياتٍ كبيرةً من الهواء حتى تبادر إلى ذهني بأنني سأبتلعه كله دفعة واحدة. أدخلت رأسي من النافذة بعد أن هدأت نوبة الاختناق تلك. طوقتني أمي بذراعيها وتوسلت إلي لساعاتٍ أن أعود إلى المشفى أو أن أسمح لها بجلب بعض أسطوانات الأكسجين إلى المنزل ولكنني كنت ثابتةً على رأيي هذه المرة، لن أتراجع عن قراري وإن كان خاطئًا. خرجنا إلى المطبخ لتناول طعام الفطور. لم أستطع تناول الكثير. فقد اعتدت على مدّي بالغذاء عبر المحاليل الملحية التي يثبتونها بيدي طوال اليوم. منذ خروجي من المستشفى لم تجرؤ والدتي على إغلاق أي نافذة من المنزل. كانت تحاول إدخال أكبر كمية ممكنة من الهواء لأستنشقها علّي وإن خالفني الحظ...أحيا.

كانت أيامي بعدها رتيبةً ذات نسقٍ واحدٍ. أجلس صباحًا أحتسي القهوة مع والدتي على أنغام فيروز، ثم نتناول الفطور ونجلس أمام التلفاز لساعاتٍ بعدها نعود لتناول الطعام على طاولة الغداء لالتقف كتاباً بعدها وأسرد في صفحاته إلى أن يغلبني النعاس فأرتمي في سريري في غرفتي الباردة لأنام ليومٍ أخر.

لقد تأخر علي الموت. لم يأت بموعده كما كنت أتخيل منه أن يفعل. هل سيخذلني كما فعل الأمل من قبله؟ هل سينتظرني إلى ان أتعلق بالحياةٍ مرةً أخرى ثم يجيء فجأةً؟ سأنتظره..فأنا أعلم بأنه قادم عما قريب.

بات تفكيري مختلفًا، بدأت أشعر بالذنب لتصرفي الأخير مع رفيق. لا أدري إن أخطأت بحقه أم لا، ولا أود إخبار أحد وسؤاله عن ذلك. أعلي الاعتذار منه؟ أم يجب أن أنسى الأمر وأدعه يموت معي؟ فكرت بالأمر مطولاً وتوصلت بأن أرسل له اعتذارًا ولكن بعد موتي. سأكتب له رسالةً أخبره فيها عن كل ما يختلجني من مشاعر، سواءً أكانت مشاعر حب أم كره. سأكتب ما يمليه قلبي فقط. سأكتب رسالة أخرى لأمي وأعتذر لها إن مت فجأة ولم أستطع توديعها.

نهضت من مجلسي وانطلقت إلى مكتبي أبحث عن أوراقٍ وأقلام. وحدت ضالتي وشرعت بالكتابة.

"إلى أمي..إلى نبض القلب. بداية، كيف حالكِ اليوم؟ هل بكيتي كثيراً على موتي؟ أرجوكِ أن تكفكفي دموعكِ فهي تؤلمني أينما كنت. بدلاً منها فلتدعي لي بالرحمة والغفران. أكتب لك هذه الرسالة كوداعٍ أخير في حال خطفني الموت دون حسبانٍ مني. أود قول الكثير ولا أدري من أين أبدأ. سأعود بي إلى أولى لحظاتي معك. لطالما أمسكتِ بيدي وعلمتني كيفية القيام بالأمور. منذ صغري..أمسكتِ ووالدي بيدي وعلمتماني المشي. ثم غرستم في ما طاب من الأخلاق الحسنة والقيم العالية. علمتني ان أكون قوية دائما لأن الله معي في كل خطوةٍ لذلك علي إطاعته والامتثال لأوامره. علمتني الصلاة ونهرتني في كل مرة كنت أتهرب من أداء فرض من الفروض. أذكر بأنني كنت في الصف الثاني عندما تلقيت أول شهادةٍ لي في حفظ القرآن الكريم. كنتما فخوران بي جداً ولم يسع الكون فرحتكما. علمتماني بأن أقول الحق وإن عوقبت بسبب قولي. قلتما بأن حقي خطٌ أحمر لايجب لأحد أن يتعداه كائناً من كان. غرستما في فكرة المساواة وأن للمرأة حقوق كما الرجل وأكثر. أمسكتما بيدي عند دخولي الجامعة وكنتما خير مشجعٍ لي. صبرتما على طيشي أيام مراهقتي وبكائي المستمر عندما كنت رضيعة. لا أدري ما أقول بعد.

أسفةٌ يا أمي، أنا ابنةٌ عاقة. كان علي أن أكون قوةً لك عندما تكبرين وكتفًا تستندين عليه وتثقين به. لكنني مرضت، تلبسني المرض رغمًا عني دون سؤال. كيف لي أن أعترض على حكم الله؟ هو الأعلم بالحال. على أية حال. عند قراءتك لهذه الرسالة سأكون قد واريت الثرى. كل ما وددت قوله هو شكرًا لأنك والدتي.

ابنتك المحبة...بيسان "

كفكفت دموعي التي انهمرت وأغرقت الرسالة ثم نهضت لإعداد كوبٍ من القهوة والبدء برسالة رفيق. وضعت رسالة أمي في مغلفٍ كتب عليه اسمها ووضعته في درج المكتب الخشب. تناولت رشفةً من القهوة واستللت قلمي لأبعث بكرهي المحب لمن كان حبي.

"إلى رفيق..

تحية طيبة وبعد.

ما إن تقع هذه الرسالة بين يديك فكن على علمٍ بأنني تركتك حقاً، سأكون في ديار الحق بدون حبك.

أحبك..

مضى وقت طويل منذ أخبرتك بأنني أحبك. رغم كل ما مررنا به ورغم كل الآلام والأوجاع وكسور القلب التي سببتها لي..بقيت هائمة عشقاً بك. كيف لا؟ أتساءل كيف لا أهيم حباً برفيق دربي، من رافقني في أجمل أيام حياتي وكان محور جمالها. كيف لي أن أنسى كل ذكرياتنا الجميلة التي عشناها بسبب موقفٍ خاطئٍ أو اثنين كنت قد قمت بهما؟ أهكذا هو الحب؟ ننتظر الحبيب ليقع في الخطأ ويقدم هفوة ما فننهال عليه بوابل من الشتائم والدعوات التي لا طائل منها.

أكرهك..

نعم أكرهك..هل استغربت الأمر؟ متأكدة بأنك تنعتني بالمجنونة الآن، لكن تأكد بأنني في كامل قواي العقلية في هذه اللحظة. أسمع فيروز في ظل هذه الليلة الباردة وأحتسي القوة بينما أخط لك هذه الكلمات. لطالما كان الكره والبغض على قدر المحبة. أحببتك أكثر من حب قيسٍ لليلى، أحببتك كزليخة يا يوسف قلبي، فكرهتك مثلها، كرهتك لدرجةٍ قد تودي بي لقتلك..لحبسك أو حتى دهسك ورميك بالرصاص. دهست قلبي، وطأت عليه بقوةٍ ولم تعتذر عن الأمر.

أنا أسفة..

أسفة لأذيتي لك ذاك اليوم في المشفى. أعتذر عم ضربي لك ومحاولتي إيذاء ابنتك. لا تبرير عندي لما حصل. هل أخبرتك بأن بيسان تشبهك؟ أتمنى أن تسامحني لفعلتي هذه ولتصفح عني لمبادرتي بالانفصال لكنني لم كن قادرةً على احتمال قسوتك وتجاهلك لوقتٍ أطول.

هل أخبرتك؟

لقد قال الطبيب بأن السرطان بدأ بالانحسار والتلاشي، وإنه إن استمريت على جرعات هذا السم الذي يسمونه بالعلاج سأشفى بغضون شهور. لكنني ماعدت أريد العيش في هذه الحياة. حتى

وإن شفيت تماماً فإن أثار المرض لن تشفى. ندباته الخارجية والداخلية، مناعتي الضعيفة ستسبب لي الكثير والكثير من المشاكل. لذلك خرجت من المشفى وقررت الموت في منزلي الذي نشأت به، منزلي الذي أخذتني منه.

لقد أصبحت كثيرة الكلام على غير عادتي، أعتذر عن الاطالة. أرجو منك أن تبلغ سلامي لزوجتك وابنتك الجميلة وأتمنى حقاً ومن أعماق قلبي أن تحيا في سعادةٍ وهناء إلى أخر العمر.

زوجتك المخلصة، بيسان"

صحوت في اليوم التالي لأجد نفسي نائمة على المكتب فوق رسالة رفيق. يبدو بأن والدتي لم تشأ إزعاجي فقامت بوضع غطاءٍ عل. كتفي وتركتني نائمة كما أنا. تمددت قليلاً ثم نهضت أرقب الناس الذين يركضون إلى أشغالهم منذ الصباح. كخلية النحل يعملون بلا توقفٍ إلى أن يناديهم ملك الموت. شردت في الفراغ أفكر بالماضي.

في ذاكرتي حكاية فراق بدأت أتلوها على مسامع قلبي عند المساء أواسيه بها حتى لا يتألم عندما يتوقّف نبضه.

مات أبي وانكسر ظهري من بعده لكنّه أوصاني ذات يوم أن لا أركن لأحد في هذه الدنيا إلا لله سبحانه وتعالى، فالكل زائل ويبقى وجه ذو الجلال والإكرام، فاللّهم ارحم روحًا تراها ونحن لا نقدر على رؤيتها.

حقيقة الموت مؤلمة.

أقرّ بذلك، لكنه حقٌّ على جميع الناس ولن يفلت من قبضته أحد.

يسري شعورٌ غريبٌ فيّ اليوم، لربّما الأجل اقترب وحان الوقت لتعود الأمانة إلى ربّها بعد طول عذاب، أتمنّى أن يكون موتي خاتمة للأحزان، فلا بدّ أنه قد حان يوم الميعاد لأرحل من الدّنيا وأفارقها وأنتقل من الدّيار الفانية إلى ديار الحق الخالدة. يقال بأن الروح تستعيد كامل نشاطها لدى دنو موعد ارتحالها. أرقتني هذه الفكرة، ماذا عن الرسائل؟ أين سأتركم كي يجدوهم عند موتي؟ عادةً تترك مثل هذه الأمور عند محامي العائلة ويعرضها على الجميع عند موت الشخص. لكنني لا أملك محامياً ولا أريد.

ارتديت ملابسي وتسللت من المنزل خارجةً فقد خطر ببالي شخصٌ قد يمكن ائتمانه على هذا الأمر. أخذت الرسائل معي وانطلقت إلى المشفى.

دخلت مسرعةً إلى بهو المشفى أبحث وأسال عن طبيبي المسؤول، لكنّهم أخبروني بأنه لم يأتِ بعد و سيستغرق قدومه على أقل تقدير نصف ساعة، جلست أنتظره بفارغ الصّبر على أحرّ من الجّمر كي يأتي وأسلّمه الوصيّة قبل أن أسلّم روحي. فلا أعلم أحدًا يمكنني الوثوق به غيره. أنا واثقة بأنه أهلٌ للثقة. لا أدري من أين أجلبت كم الثقة هذه به. ربما لأنه اعتنى بي طوال فترة مرضي. لذلك سأعهد إليه بهذا الأمر.

قد جاء الطبيب أخيرًا بعد طول انتظارٍ...

دخل من باب المشفى كعادته مبتسماً يلقي التحية على الجميع كبيرًا كان أم صغيرًا. رآني من بعيد فأسرع الخطى باتجاهي.

أهلًا بيسان.

أهلًا بكَ أيها الطبيب.

هل غيرتِ رأيك بالعودة إلى هنا لتلقي العلاج؟

لا، أنا لن أتراجع أبداً عن قرار اتخذته بإرادتي.

غضب الطبيب مني وعقد يديه أمام صدره.

ما الأمر إذًا لم تحملتِ شقاء القدوم إلى هنا؟

أودّ ترك وصية لي معك...رسالتين، الأولى لأمّي والثانية لرفيق. أرجوك بأن تقبل بهذا الأمر. فأنت الشخص الوحيد الذي أعرفه أهلاً للثقة بهذا الأمر.

مممم، حسناً سأقوم بذلك لا مشكلة لدي، رسالة لأمك ورسالة لرفيق. ولكن لماذا رفيق؟ ما علاقته بالأمر. فأنا أعلم بأنكما تطلقتما منذ مدة.

لا أدري، ربما لا علاقة له بالأمر...و لكنني كتبتها وانتهى الأمر.

مددت يدي لأناوله المغلفين الأبيضين اللذان يحملان اسم والدتي ورفيق.

أرجو منك أن تسلمهما الرسائل عند موتي. أسفة على إزعاجك بأمر كهذا.

استدرت وانطلقت مسرعةً إلى الباب خوفًا مني بأن يمسكوا بي ويجبروني على البقاء هنا.

عدت إلى المنزل مرتاحة البال. فوصيتي أصبحت بين أيدٍ أمينة الآن. ناديت لوالدتي كثيراً لأخبرها بقدومي ولكنها لم تكن في المنزل.

حسنًا، سأصنع لنفسي كوبًا من القهوة وأنتظر قدومها لنتناول طعام الغداء سويةً. أرسلت لها رسالة نصيةً أخبرها فيها بأنني وصل المنزل وأطلب منها أن تشتري لي بعضاً من حلوى غزل البنات.

"أحلى غزل بنات لبيسان"

هكذا ردت والدتي على رسالتي. وضعت كوب القهوة أمامي على المكتب وقمت لأخر مرة بتشغيل أغاني فيروز. وضعت رأسي على طاولة المكتب وأغلقت عيناي مبتسمةً أستمع لأنغام الأغنية البديعة، أخر ما سمعتها تقول...

"ضلّوا تذكّرونا".....

دخلت المنزل أحمل أكياس الخضار التي تبضعتها من السوق وبعض حلوى غزل البنات التي طلبتها بيسان مني سابقاً. فتحت الباب أناديها قبل دخولي. ناديت اسمها كثيراً كي تأتي وتأخذ مني الحلوى لكنها لم تجب. اعتراني القلق عند سماعي لصوت الموسيقى منطلقة من غرفتها وعدم إجابتها لندائي رغم أن باب غرفتها كان مفتوحًا على مصراعيه. رميت الأغراض أرضاً ودهست دون انتباهٍ مني غزل البنات الذي طلبته. باب الشقة ترك مفتوحًا..تناثرت قطع الخضار هنا وهناك ودوت صرخة ألمي أنحاء العمارة. غادرتني بيسان، لم تعد هنا.

ها أنا ذا..مرة أخرى. ذات المشهد القديم يتكرر أمامي. في البداية زوجي، والآن ابنتي. ماذا بعد؟ لم مازلت هنا؟ كيف لي أن الحق بهم؟ أقف هنا أمام قبركِ ياصغيرتي، لقد جاورت والدك حتى حين الموت. لم تستطيعي التخلي عنه حقاً. لكنك تخليتي عم والدتك، كيف استطعتِ؟ لقد اجلبت لكِ الحلوى التي طلبتها يابيسان. لم لم تتناوليها؟ لمَ أذقتني ألم رحيلك هكذا؟ سمع معظم الجيران في البناء صراخي ونحيبي وأسرعوا بالاتصال بالإسعاف ولكنه كان متأخر جداً. خطفت روحك مبكراً يا صغيرتي. لمن سأشكي همي وحزني الآن؟ من سيساعدني في أعمال المنزل بعد رحيلك؟ أخبريني من؟ أنظري من أتى..ليتك ترينه كيف يركض للوصول إلى قبرك مستميتاً. سقط أرضاً يبكي وينوح كالأطفال يمسك حفنة من ترابك ويشتمها بقوة وكأنها ستعيدك إليه إن فعل. نهض وعانقني بقوةٍ، لم أستطع عدم مبادرته بالأمر فحرقتي هذه لايشعر بها إلا هو، رفيق هو الوحيد الذي سيشعر بألمي الآن. بكينا سوية إلى أن هبط الظلام وانهرنا من شدة البكاء. لم يذهب إلى منزله تلك الليلة، بقي في منزلنا. استلقى في غرفتك على سريرك واستمر بالبكاء إلى أن غفى..أعتقد بأنه فقد وعيه من شدة البكاء.

استيقظت في اليوم التالي على صوت طرقٍ على الباب. نهضت عن الأريكة التي اتخذتها سريرًا لي في الليلة الماضية وفتحت الباب. كان الطارق طبيب بيسان! صدمت لقدومه حقيقةً، لم أتوقع منه هذه المبادرة بالقدوم. دخل الطبيب واتخذ من أحد الأرائك مجلسًا له وبدأ كلامه بتقديم التعازي الحارة لي.

أسفٌ على فقدك هذا، من المؤكد بأنه أمر صعب التحمل بالنسبة لك. لكن عليك الصبر والدعاء لها بالرحمة والغفران فهي تحتاجهما الآن.

مسحت دموعي التي ما توقفت منذ البارحة بالانهمار سيولًا خادقةً. أخرج الطبيب مغلفًا ورقيًا من جيب سترته ووضعه أمامي على الطاولة. نظرت إلى المغلف ثم إلى الطبيب.

ما هذا المغلف؟

أجابني قائلًا بأن بيسان يوم وفاتها أجلبت مغلفين من الرسائل وأوصته بإيصال أحدها لوالدتها والأخر لزوجها السابق رفيق عند موتها.

ها قد أديت الأمانة يا أن بيسان، بقي أن أستدل إلى منزل السيد رفيق لأسلمه المغلف بنفسي.

لا داعٍ للبحث عنه ايها الطبيب فهو نائم في غرفة. بيسان، عن إذنك سأوقظه.

تسلم رفيق المغلف من الطبيب وشكره لجهده على حرصه لإيصالهم لهم وبتعزيتهم بفقيدتهم.

مشاعر مختلطة شعرنا بها أنا ورفيق عند قراءتنا للرسائل التي تركتها بيسان، شعرنا بالفرح تارةً وبالحزن تارة أخرى بكينا وضحكنا تمنينا عودتك لتكوني بيننا من جديد. ضممت الورقة إلى صدري أبكيكِ، أبكي شبابك الذي ضاع دون أن تعيشي لحظة منه، أبكي على نفسي

الوحيدة. تمددت على الأريكة أبكي لساعاتٍ، لأيامٍ أبكي دون أن تجف لي دمعة، سأبكيك الدهر كله يا زهرة العمر أنت....

رحمكِ الله يا بيسان.

مرت خمسة أعوامٍ على موتِ بيسان. مرت وكأنها خمسة قرونٍ علينا. كان فراقها صعباً للغاية. تركت في القلب شرخاً لا يمكن إصلاحه أو ترميمه. تداعت والدتها بعد موتها ولم تعد تقوى على القيام بأي شيءٍ. أصيبت بمرض السكري جراء حزنها على موت ابنتها. استمرت بتناول الدواء مدة طويلة. كانت تذهب إلى الطبيب مرة كل أسبوعٍ ليطمئن على حالها، فحتى ضغط الدم عندها أصبح متقلباً غير ثابتٍ. لم أستطع تركها وحيدةً. كنت أطمئن عليها مرتين في اليوم الواحدة وأجلب لها ما تحتاج من أدوية وحاجيات أخرى. كذلك زوجتي ، قد شعرت بالشفقة على حالها وأصبحت تزورها بكثرةٍ لتنظف لها المنزل وتعد لها بعض الطعام لتتناوله. حتى أن بيسان الصغيرة قد تعلقت بها و باتت تعاملها كجدتها. كانت مسرورةً لوجودنا حولها، رغم حزنها وحدادها السرمدي على ابنتها إلا أنها كانا تستمتع ببعض الأيام وتضحك مرةً أو اثنتين كل سنة.

بيسانتي، اليوم ذكرى وفاتك الخامسة لقد مرت الأيام علينا بشق الأنفس. والدتك لم تقدر على استيعاب موتك بعد. قمت أنا وزوجتي بإعداد بعض الأطباق التي كنتِ تفضلينها وبعضًا من حسائك المفضل أيضًا، جلسنا جميعًا نقرأ لك بعض القرآن علّه يكون شفيعا لك ويؤنسك في قبرك. دائمًا أتساءل عن حالك بعد الموت. هل تعيشين حياةً جيدة تعوضك عن آلام وقسوة الدنيا؟ أم أن حياتك الأخرى قاسية أيضًا؟ نهضت والدتك و القرآن الذي كانت تقرأ به واعتذرت منا لكي تتمكن من الذهاب إلى غرفتها وتستريح قليلًا، سمعتها تبكي بحرقةٍ، الجميع سمعها تبكي. إلى أن هدأت فجأة بعد مدة من الزمن واختفى بكاؤها. انتهيت وزوجتي من قراءة القرآن وهممنا بتحضير طاولة الطعام، بعد انتهائنا طلبت من بيسان الصغيرة الذهاب لمناداة جدتها كي تتناول الطعام، انطلقت بيسان لإيقاظها من النوم كما طلبت وعادت مسرعةً لتخبرنا بأن الجدة لم تستيقظ ولم تشعر بها عندما حادثتها. فذهبت لأرى المشكلة وإذ بها مستلقيةٌ بسلامٍ هناك وكأنها نائمة دون حراك، لم أعلم ما أفعله، أسرعت بطلب الإسعاف ولكن كان قدومهم بلا جدوى. والدتك قد فارقت الحياة، أصيبت بسكتةٍ قلبية مما أدى إلى توقف قلبها وموتها دون رجعة. أقمنا حداداً لثلاثةِ أيامٍ من أجل أم بيسان. و نقلت إلى المقبرة لتدفن بالقرب من زوجها وابنتها لتؤنس وحدتهما التي طالت.

وقفت هناك، أمام قبرك ووالديك أتذكر أيامنا الخوالي. بداياتنا الجميلة معاً ونهايتنا. أتساءل، كيف للموت أن يخطف الناس على عجل؟ هل يناديهم الله بسنٍ صغيرةٍ حباً بهم؟ أم يناديهم ليخلصهم من شر هذه الحياة الفانية؟ لقد حاربتِ المرض بضراوةٍ يابيسان. لقد تعذبتِ كثيرًا لدرجةٍ لا تطاق. آن الأوان لتنعمي بالراحة والسلام. آن الأوان بأن تجتمعي وعائلتك في مكانٍ لطيفٍ يليق بكم. سأزورك مرة أخرى وأخبرك عن أحوالي. والآن، وداعًا إلى لقاءٍ أخر.